أحمد مدحت

قبل الفراق بخطوة

رواية

عصير الكتب

قبل الفراق بخطوة

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- المؤلف: أحمد مدحت
- تدقيق لغوي: أحمد إبراهيم
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
- رقم الإيداع: 2021/15170م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-22-0

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

أحمد مدحت

قبل الفراق بخطوة

رواية

عصير الكتب

إهداء

إلى أمي.. والمحبة التي لا يفنيها الموت.

أحمد مدحت

1

نظر إلى سلسلة مفاتيحه العالقة بين أصابع يده اليمنى لثوانٍ وهو يقف متجمدًا أمام سيارته التي لم يحبها يومًا، أمام البناية التي تقع فيها شقته، في الشارع الهادئ كمدينة الموتى في ساعات الصباح الأولى.. في الواقع هو لا يحب سيارته ولا شارعه الجديد ولا شقته التي يعيش بها، صحيح أنه يعيش هنا منذ ما يزيد على السنتين، إلا أن عقله ما زال يتعامل معه باعتباره «الشارع الجديد» دون ألفة.. هذه المنطقة الجديدة الواقعة على أطراف المدينة لم تنجح في استمالته إليها، وهو الذي ولد في زخم شوارع «شبرا».

وقف «عليٌّ» حائرًا أمام سيارته، هو الذي لم يحب القيادة يومًا في حياته، لكنه تعلمها وابتاع السيارة قبل زواجه بعدة شهور، محاولًا إسعاد «سما»، التي حدثته ولمحت كثيرًا خلال فترة الخطبة أنها تعتبر السيارة ضرورة لا غنى عنها، تحفظ كرامة صاحبها وعائلته. لم يتجاهل تلميحاتها، لكنه لم يصارحها أبدًا أنه يمقت القيادة، كأن عقله مصمّم على عدم الإمساك بالمقود، كأنه يرفض القيادة كونها مبدأ، حتى أصبحت أسوأ ساعات يومه هي التي يقضيها خلف مقود السيارة، مشدود الأعصاب كأنه يخوض حربًا لا يمتلك لها ما يكفي من القوة.

انتهت حيرته بأن أخرج نفسًا عميقًا، وحسم أمره أنه يكفيه ممارسة ما لا يحب إرضاءً لغيره، سيذهب اليوم إلى العمل بالمواصلات كما كان يفعل في أيام عزوبيته. حقًّا إن الأمر سيتطلب جهدًا أكبر ووقتًا أطول، إلا أن هذا كان أهون عليه من قيادة سيارته، رغم الجهد والوقت الذي سيبذله إلا أن هذا كان أخف على روحه وأحب إليها.

انحشر بصعوبة داخل الميكروباص، بعد أن سار قرابة نصف ساعة حتى يصل إلى موقف الأجرة الوحيد بالقرب من مسكنه.. شعر بتقلصات الشد العضلي في ساقيه، وهو يدفع الهواء دفعًا داخل صدره، لقد أفقدته ساعات الجلوس الطويلة على المكتب لياقته، وأضافت إلى قوامه كرشًا متكورًا صغيرًا يزيده إحباطًا كلما نظر إليه.

لكنه رغم كل شيء أحس ببعض الرضا عن النفس، فها هو أخيرًا يفعل شيئًا –ولو كان تافهًا– لإرضاء نفسه.. بعد أن قضى سنين حياته يرضي من حوله.

دفع الأجرة، واحتضن حقيبة الظهر الخاصة به، ليفتح النافذة قليلًا طلبًا للهواء.. نسيم بارد يدغدغ حواسه كلها، ليت العام كلّه كان خريفًا.. لكن نسيم العالم كله لم يكن كافيًا ليزيل غصة قلبه، وهو على وشك تطليق زوجته، التي ظنّها حب حياته الأبدي.

– أنت أناني قوي، ما بتفكرش غير في اللي يريحك وخلاص، فيها إيه لما تسمع كلامي عشان نبقى أحسن؟ بتحسسني إني عدوتك وبتمنى لك الشر!

صوت صراخها ما زال يضج في أذنيه كأنه سمعها للتو، لم يكره في حياته شيئًا كصوت الصراخ الحاد هذا، صوت أمه الزاعق له طفلًا ومراهقًا وشابًّا، صوت التوبيخ الدائم اللائم على كل الأشياء حتى أكثرها تفاهة، والآن صوت زوجته التي تصرخ فيه كأنها تحدّث طفلًا صغيرًا فتأمره وتنهاه.. تتعلل في لحظات الصفاء –بعدما يذهب إليها للاعتذار بالطبع– أنها تفقد أعصابها عندما تنفعل، هكذا ببساطة دون أي مبررات أخرى.

اعتاد على الدوام أن يسمعها تصرخ دون إبداء رد فعل، دون اعتراض على طريقتها غير اللائقة، وانفعالها غير المبرر، لا يصدر عنه أي شيء سوى محاولة تهدئتها ودعوتها إلى النقاش بعقلانية. لكنه أمس تصرّف بشكل مغاير، صحيح أنه لم ينفعل، لم يصرخ في وجهها ردًّا على تجاوزها، لكنه –دون ترتيب مسبق– وقف أمامها مباشرة، ناظرًا في عينيها، وقال بهدوء وبنبرة لا تردد فيها:

- أنت اللي أنانية يا «سما».. أنت أكتر إنسان أناني ممكن تقابليه في حياتك.

ظلّ «عليٌّ» يلوم نفسه على كل شيء تقريبًا، لكنه –ولمرة نادرة– لم يستطع أن يلوم نفسه على ما نطق به لسانه وهو ينظر إلى زوجته في عينيها، كم تمنى منذ زواجهما أن يخبرها من أعماق قلبه بكل ما يكره! يخبرها كم أنها لا ترى إلا نفسها! وكم عذّبته هذه الأنانية وهو عاجز أمامها أضعف من أن يغادرها! أضعف من حماية نفسه.. فأحيانًا ترتبط راحتنا بوجوب مغادرة أكثر من أحببنا!

ضم حقيبته بقوة، لعل ضغطها على صدره يمنع قلبه من الوثب خارج موضعه.. قلبه يؤلمه، يشعر بكل نبضة مثل وخزة، كأنه يسترجع كل ذكرياته الحزينة ويعدها له دقة.. دقة.

2

بذلت «سما» قصارى جهدها كي تظهر تأثرًا أثناء اتصالها بواحدة من معارفها، كي تعزيها في وفاة والدها التي عرفت بها للتو عن طريق «فيسبوك»، رغم أن الوفاة حدثت أمس. لكنها لم تنتبه إلى هذا الخبر لانشغال بالها بمشاجرتها العنيفة أمس مع زوجها «عليّ».

مواساتها المفتعلة لصديقتها وعزاؤها المصطنع لم يكن تبلدًا في مشاعرها، صحيح هي تعرف في نفسها قدرًا من العقلانية في إدارة مشاعرها، على عكس معظم النساء اللائي قابلتهن في حياتها، إلا أن هذا الموقف بالتحديد يختلف، كيف تظهر حزنًا لأن صديقة فقدت أباها! كيف يظهر الإنسان مشاعر لم يختبرها من قبل؟

تتذكر وقوفها إلى جوار أمها في المقابر يوم دفن أبيها، مراهقة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، بعد أن رفضت أن تدخل قبل مراسم الغسل، لتلقي عليه نظرة وداع أخيرة.. هل من المخجل أن يعترف المرء أنه لم يجرّب مشاعر الحب تجاه أبيه، وبالتالي مشاعر لوعة فراقه عند الموت!

ربما.. لكن هذه هي الحقيقة التي لا تصارح الكثيرين بها، تجنبًا لحديث المواعظ الذي لا تحب سماعه.. وهل تدّعي الحب إرضاء للناس! وهل نفعها الناس وهي تقضي طفولتها وشبابها نتيجة تراكم مشاعر الغضب تجاه رجل ظل حتى موته يتعامل معها هي وأمها على أنهما حمل زائد!

حاولت إنهاء مكالمة التعزية الثقيلة على نفسها سريعًا.. ووقفت تحكم ربط الطرحة بدقة حول رقبتها الطويلة التي تميّزها منذ صغرها: ملامح دقيقة وديعة.. جمال لافت دون محاولة منها لإبرازه، الأنف الدقيق، والشفتان المنفرجتان قليلًا عن أسنان بيضاء كاللؤلؤ، والمقلتان الواسعتان يؤطران العيون العسلية التي تلمع تحت الشمس ككرتين من البلور.. ملامح رقيقة، وجسد متناسق حافظت عليه بالنظام الغذائي الصارم منذ مراهقتها.. رقة مظهرية لا علاقة لها بشخصيتها القوية حادة الطباع، وإن كانت تحاول السيطرة على هذه الحدة تجنبًا للصدام مع الناس.

صوت «محمد فوزي» يأتي من الصالة، فتبتسم رغمًا عنها، أمها كعادتها تستمع إلى إحدى أغانيه قبل الإفطار.. وتتذكر أن «عليّ» يحبه أيضًا، فيختفي شبح الابتسامة شيئًا فشيئًا عندما تتذكر غضبها منه، صحيح أنه حرص على توصيلها بالسيارة، بعد شجارهما أمس إلى شقة أمها في حي الزمالك، وصافح أمها عند الباب بتهذيبه المعتاد واستأذن في الانصراف متحججًا بشيء ما لم تنتبه إلى سماعه في فورة انفعالها، إلا أن كل هذا لم يخفف من حدة غضبها تجاهه؛ ما قاله لها كان صادمًا وجارحًا بشكل لم يستوعبه أحد سواها، حتى أمها لم تستوعب قدر الألم الذي شعرت هي به، بعد أن قصّت عليها ما جرى. كانت مواجهته مؤلمة، حتى لو كان له ما يبرر غضبه، لم تكن المشكلة في أن زوجها نعتها بالأنانية، لكن المشكلة كانت تكمن في زاوية بعيدة من ذكرياتها المظلمة، لقد نكأ دون أن يشعر جرحًا

لم يندمل في قلبها لو ليوم واحد على مدار سنوات طوال. لقد أخرج شبح أبيها من قبره ووضعها أمامه وجهًا لوجه، وبعث دون أن يشعر أبشع مخاوفها.

منذ يوم ارتباطهما الأول، رأت «سما» أنها هي من تدفع «عليّ» نحو كل خطوة جيدة في حياته، وحياتهما المشتركة فيما بعد.. حتى أبسط الأشياء كانت حريصة على أن تجعله يقوم بها بالطريقة الأفضل والأكثر نفعًا له، كانت العقل المفكر المهتم بكل التفاصيل، ورأت أنها تحملت ما لم تكن مضطرة لتحمله من أجل إنجاح علاقتهما، وبعد كل هذا يتهمها بالأنانية بهذه الحدّة!

"سما» ليست من النوع الذي يظهر تعاطفه بسهولة، حتى لو كان هذا حقيقة شعورها، ولذلك إذا طلب أقرب الناس إليها أن تنصحه، فإنها تقدم نصيحتها بعقل بارد، ووجه يخلو من المشاعر، بطريقة محايدة كأن إنسانًا آليًا يفاضل بين عدد من الاختيارات ويقدم الأنسب منها، دون خوف على الطرف الآخر أو إشفاق أو إظهار تعاطف مع موقفه. كانت هذه الطريقة هي درعها الآمن الذي يحميها من الانغماس في دوائر الآخرين، تحرص دومًا على التعامل بطريقة الدوائر، يمكن التَّماس مع من حولها دون أن تحتوي دائرة الأخرى. لهذا اعتادت أن تكره قلبها عندما يرق، لم تجلب لها الرقة سوى الألم، على عكس حدة شخصيتها التي طالما احتمت بها في أوقات عدة وكانت طوق نجاتها.. تكره ضعف قلبها تجاه «عليّ»، تكره ضعفها عمومًا، وهل هناك رجل يؤتمن بصدق على هذا الضعف؟!

أخذت تطالع جدران غرفتها وهي تحكم ملابسها حول جسدها.. صور كثيرة تغطي الحائط تجمعها بأمها، في كل مراحلها العمرية تقريبًا، وهي طفلة تمسك بيدها اليمنى وتنظر إلى الكاميرا ضاحكة، وهي مراهقة وتسند رأسها باطمئنان على كتفها، وهي شابة في الجامعة تحتضن أمها وكأنها هي الطفلة الصغيرة بين ذراعيها، لـ «فاتن» أمها ابتسامة ملائكية يصعب أن تجد مثلها، ابتسامة امرأة لم تعرف القسوة طريق قلبها، رغم كثرة ما لاقته من قسوة، وهذا ما لم تفهمه «سما» أبدًا.

جدران البيت خالية من أي صورة للأب، جدران تحكي قصة الأسرة الصغيرة بتكثيف مذهل.. لم تكن «سما» تعرف أن أمها تحتفظ بصور كثيرة لأبيها في صندوق مجوهراتها داخل دولاب ملابسها، والتي أخفتها عنها لسنين طويلة تجنبًا للوم الابنة الغاضبة دومًا عندما تأتي أمها على سيرة الأب. كان ذكر أبيها أحد المحرمات التي لا تسمح بانتهاكها، مجرد تردد اسمه كان ينكأ جرحها ويدمي قلبها، كم تمنت لو أنها تستطيع محو كل ذكرياتها معه من عقلها! بل كثيرًا ما كانت تخلو بنفسها في غرفتها وتتخيل نفسها فتاة يتيمة نشأت دون أن ترى أباها، وتتخيل كم كانت ستحبه لو لم يكن له وجود حقيقي!

لمحت أمها جالسة إلى السفرة، وديعة كأنها قطة حديثة الولادة، لم تفلح سنين عمرها التي قاربت على الستين إلا أن تزيدها جمالًا ورقة. فأمها هانم بكل ما تعنيه الكلمة.. احتضنتها الأم كعادتها التي لا تتغير أبدًا، وقالت بحزم مرح:

- ما فيش نزول من غير فطار، انسي!

ابتسمت «سما» وهزت رأسها موافقة. حدّتها تتلاشى أمام رقة أمها ورحمتها، ويخفت صوت الغضب في داخلها أمام هذا الحنان الغامر، المحبة تطمئن حتى أشد الخائفين، و«فاتن» كتلة من المحبة لم تفسدها القسوة، أفلتت روحها من القسوة بمعجزة لا يعرف أحد سرها إلا الله.

نظرت الأم طويلًا إلى «سما» التي انهمكت في الأكل، وهي تطالع شاشة هاتفها كل دقيقة باحثة عن مستجدات أخبار الدنيا.. بدا أنها تبحث عن الوسيلة الأنسب لتطرح اقتراحها على مسامع «سما»، إلى أن تنحنحت بهدوء وقالت بنبرة حاولت أن تكون حانية قدر الإمكان:

- مش هتكلمي «علي» تطمني عليه يا حبيبتي!

لمحت «فاتن» ملامح الضيق بادية على وجه الابنة، التي أخذت تلوك طعامها ببطء، محاولةً أن تمضغ غضبها مع اللقمات التي تضعها في فمها، متجاهلة سؤال الأم، التي قالت بتصميم:

- ما ينفعش القسوة دي، أنتم مش ديوك عشان تقفوا لبعض بالشكل ده، وبعدين هو ما عملش جريمة في حقك يعني يا «سما»! ما تقسيش عليه وعلى روحك.

توضعت «سما» الهاتف بعصبية على المنضدة، والتفتت إلى الأم وقالت بنبرة حاولت أن تكون هادئة قدر إمكانها:

- القسوة وحشة آه يا ماما، وبردو دلع الرجالة الزايد عن اللزوم وحش ونتايجه أوحش. وأنتِ أكتر واحدة في الدنيا عارفة دة كويس.

بقدر طيبتها ووداعة طباعها، فقد كانت الأم ذكية بالفطرة وسريعة البديهة، فهمت مقصد كلام «سما»، فقالت بهدوء وهي لا تنظر إليها، كعادتها عندما يباغتها الضيق:

- مش كل الرجالة أبوكِ يا «سما».. بطلي تحاسبي جوزك وتحاسبي نفسك باللي عيشته أنا.

وضعت «سما» قطعة الخبز التي كانت بين أصابعها بهدوء في الطبق، وجمعت حاجياتها في الحقيبة الجلدية السوداء، ونظرت مباشرة إلى أمها قبل أن تنهض متجهة إلى باب الشقة:

- بس أنتِ بتنسي يا ماما إني عيشت معاك اللي عيشتيه مع جوزك بردو، عيشته ودفعت تمنه غصب عني وعنك.

وقامت للمغادرة دون وداع.

لم تغضب أمها منها، بقدر ما كانت حزينة لها وعليها.. كانت تعذر حدتها، رغم قسوة كلماتها إلا أنها لا تخلو من الحقيقة، إن ما قاسته مع زوجها لم تكن وحدها من دفعت ثمنه، بل شاركتها ابنتها هذا الثمن الأليم، بل لعلها كان لها النصيب الأكبر من الألم، فإن قاست هي من معاملته بشكل مباشر إلا أنها كانت امرأة كبيرة ناضجة، أما ابنتها فقد وضعها القدر في التجربة الرهيبة وهي لينة العظام لم ينمُ لها ريش ولا اشتد لها عزم بعد، كانت صغيرة، كل ما فيها صغير، إلا عقلها، كان كبيرًا أكثر مما يجب،

فاحتفظ بتفاصيل القسوة ومفردات المهانة، واختزنتها في قلبها وروحها، فلم تتخلص منها ولو للحظة واحدة. جرح الأب الحاضر الغائب لا يفارق وجدان أي فتاة، جرح الأمان الأعظم صعب الالتئام.

3

بقدر ما كان «علي» غير راضٍ عن معظم مسارات حياته، بقدر عدم سعيه لاتخاذ مواقف حقيقية تغيّر مسار حياته بالشكل الذي يريحه. لم يكن من النوع الذي يعتاد الهوان حتى يألفه، ولا هو الشخص الخانع الذي لا حيلة له، لا لم يكن الأمر كذلك؛ بل كان قويًّا يعتد بكبريائه، لكن بقدر قوته بقدر رقته، فكان يفضل أن يتعرض إلى الموت ألف مرة على أن يؤذي شخصًا يحبه، حتى لو تعرض إليه الآخر بالأذى مرات ومرات. طبيعته المسالمة تجعله يستقبل تجاوز الآخرين في حقه بنفس طيبة، حتى لا يدخل في مواجهة مباشرة ربما تكون عاقبتها خسارة من حوله، فكان يفضل موقفه السلبي الآمن، على أن يكون إيجابيًّا في استرداد حقه بطريقة تؤذي أحبابه. وقد كان الشخص الوحيد الذي يستطيع إيذاءه دون تردد، هو نفسه «عليّ»!

إلا أن أسوأ ما في الأمر ليس سلبيته، بل إحساسه شبه الدائم بالرثاء تجاه نفسه.. ورغم إدراكه المبكر لسوء فكرة أنه يرثى لمصيره حتى يصبح في نظر نفسه –أحيانًا– الضحية المطلقة لكل ما يحيط به، إلا أنه لم يستطع بجدية تغيير هذه النظرة الاستشهادية التي ينظر بها إلى نفسه في أمور حياته.

الناس لا يحترمون المستضعفين منهم، بل يستمتعون بسحقهم بتلذذ.. علّمته الحياة هذا الدرس بوضوح منذ صدماتها الأولى، لكنه جنح لهذه الخصلة لأسباب عدة، معظمها يتعلق بسنين نشأته الأولى: أمه الحريصة دومًا على أن يكون الطفل المهذب، والطالب المتفوق، والفتى الذي لا يجادل ولا يناقش، هي من سحقت فيه كل قدرة على المقاومة، وزرعت في نفسه الصمت أمام التجاوز، وليت ما زرعته أمه كان هو الحصاد الوحيد، لكان الأمر أيسر، ولربما اعتاد الخنوع وألفه، لكن المأساة أنه بجوار ما بذرته أمه في نفسه كانت هناك يد القدر تبذر فيه عقلًا واعيًا وإحساسًا مرهفًا، فكان يرى سلبيته بعين لا تخطئ، ويدرك أن ما هو فيه ليس الوضع الصحيح، وأن ما يفعله ليس هو السلوك الأمثل، وأن عليه أن يقول «لا» أحيانًا وبكل قوة، وأن «نعم» كثيرًا ما أفسدت حياته وضيعت حقوقه. فكان يعيش هذا الصراع المستمر بين قوة الـ «لا» الغائبة، ووطأة الـ «نعم» الجاثمة، صراعًا أرّقه طيلة عمره حتى اتخذ قراره أخيرًا.

دخل إلى الشركة دون أن يرفع رأسه لتحية أحد، مرهق القسمات، عكر المزاج، لم تسلم ملامحه من معركة ليلة أمس الطويلة.. أنزل الحقيبة عن ظهره، وجلس إلى المكتب مباشرة دون أن يرفع وجهه لمن حوله.. تجنب النظرات التي شعر بها مصوّبة نحوه من اتجاهات عدّة بقدر ما استطاع، وحاول التركيز على شاشة اللابتوب، متخذًا خطواته الأولى كي يستعد للعمل.

مكتب الشركة التي يعمل بها صمم على الطراز الأمريكي، مجموعة من المكاتب المنفصلة المتصلة، لا يفصلها عن بعضها سوى مجموعة من الطرقات القصيرة، والحواجز الزجاجية التي تميّز حجرات المديرين عما سواها، لكنها تكشف ما بداخلها.. طالما أغاظته هذه النقطة بالتحديد في التصميم، هو

الذي يؤمن بقدسية خصوصية المرء.. لكن هل يعامل بإنسانية أساسًا هنا كي نتحدث عن خصوصية وما سواها!

رفع رأسه للمرة الأولى انتباهًا لصوتٍ أتاه من نقطة أعلى من موضع جلوسه. بالطبع هو.. ومن غير «سعيد» يمتلك قدرًا كبيرًا من السماجة وحظًّا وافرًا من الوقاحة لاقتحام خصوصية إنسان يبدو عليه جليًّا أنه لم يمر بأفضل لياليه؟!

- إيه يا «أبو علي»! داخل كده يا عم من غير ما تصبّح ولا تمسّي!

نظر «علي» لثوانٍ تجاهه دون أن يرد، قبل أن يعود بنظره تجاه شاشة اللابتوب، ويهمس من بين شفتيه بإرهاق:

- معلش يا «سعيد» أصلي ما نمتش كويس.. صباح الخير.

يبدو أن لهجة «علي» لم تعجبه، فقرر أن يأخذ زمام الهجوم بطريقته الماكرة المعتادة، قائلًا بلهجة تحمل من الحقد أكثر مما تظهره من المزاح:

- آه أنت أشطر واحد في المكتب وكل حاجة، بس خلي بالك دي مش أول مرة تأخير الشهر ده يا «علي».. كده ممكن تحصلنا مشاكل.

توجه «علي» بنظراته إلى أصابع «سعيد» الضاغطة على المكتب خلف اللابتوب، وزفر نفسًا ساخنًا بهدوء، واصطنع ابتسامة غير ودودة، وقرر أن يرد السماجة بمثيلتها:

- معلش يا أستاذ «سعيد»، أكيد غصب عني، شكلك ما فطرتش.. ما تفطر وتسيبني كده أشرب قهوة وبعدين نتكلم في موضوع التأخير ده.. أنا عارف الفطار بالنسبة لك مهم جدًّا.

أراد «سعيد» أن يرد عليه بما يتماشى مع نفسه من السخافة، وألا يفوّت حق الانتقام من سخريته منه، إلا أنه لمح صاحب الشركة قريبًا من باب الدخول الزجاجي، فنسي «عليّ» وثأره منه، واندفع تجاه صاحب الشركة وقد تهللت أساريره، ينتفض جسده كفتاة انتظرت فارس أحلامها سنين عددًا، ورأته فجأة أمامها.

لم يتميز «سعيد» في شيء يقوم به، إلا في ممارسة مراسم النفاق باجتهاد وثعبانية قد يحسد عليهما من البعض، لم يكن يومًا مبدعًا خلاقًا، رغم أن مجال عمله يتطلب المهارات الإبداعية بشكل رئيسي.. لم يكن متميزًا في اختلاق أفكار جديدة لحملات التسويق والدعاية الإلكترونية التي تقوم بها الشركة عبر منصات الإنترنت المختلفة، بالتحديد مواقع السوشيال ميديا، إلا أنه كان خبيرًا باللعب على كل مواطن الضعف والنقص في رب عمله؛ «محمد سند»، أو «سند باشا» كما يناديه «سعيد» دومًا.

أخذ «علي» يراقبه وهو يندفع تجاه المدير ليحمل عنه حقيبته الجلدية الصغيرة.. تقلّصت معدة «علي» من هذا المشهد المقزز، لم يفهم قط كيف يمكن لإنسان أن تنسحق نفسه هكذا بمنتهى السهولة لتحقيق أي مصلحة.. صحيح أنه كان ميالًا بطبعه لعدم الصدام مع البشر، بالتحديد مع من يملكون سلطة

عليه، إلا أنه لم يجد التزلّف أو يحبه أبدًا أو حتى يفكر فيه مجرد تفكير.. وقد ساعدته موهبته الكبيرة الابتكارية على عدم اللجوء إلى هذا الدرب الرخيص.

دخل «عليّ» هذه الشركة قبل أن يخطب «سما»، وعندما تمت الخطبة ألحت عليه بتغيير مسار حياته، واستبدال حلمه المثالي بواقع نافع، وأصرت على أن الصحافة لم تعد مجالًا آمنًا لاكتساب الرزق، وأن كتابة الروايات يمكن أن تدفع به إلى الجنون أو الموت جوعًا. اقتنع «عليّ» بموقفها، أو بمعنى أدق خضع لرغبتها، والتحق بالشركة، ومنذ يومه الأول فيها عمل على توظيف كل ملكاته الإبداعية في الكتابة، من أجل استهداف رغبات وشهوات مستخدمي الإنترنت.. وظيفة غير مريحة، في صحبة مجموعة بشرية غير مريحة، لكنها تدر عليه مرتبًا معقولًا أمَّن له حياة كريمة، ربما كان يتمناها الكثيرون. لكنه ليس واحدًا من هؤلاء الكثيرين.

كبرياء «عليّ» واحترامه لنفسه يمنعانه من التزلف لأحد أو التقرب منه طلبًا لمنفعة. إلا أن «سعيد» لم يكن يرى الحياة على هذا النحو أبدًا.. هو الآتي من الريف البعيد، وضع لنفسه القاعدة الرئيسية عندما هبطت قدماه إلى ميدان رمسيس أول مرة، سيفعل أي شيء، وكل شيء، دون النظر إلى أي أبعاد خارج حدود مصلحته، لكي يصل إلى أبعد ما يمكن.. لن يفهم هؤلاء الأفندية أبدًا مرارة قرصة الجوع، وخشونة الملابس الرخيصة على جلدك، والتطلّع إلى كل ما تشتهيه من الحياة دون أن تمتلك ثمن اقتناء أي شيء مما تتمنى. لذلك لم تكن لمبادئ «عليّ» أي قيمة أو معنى في قاموس «سعيد». فإن جمعتهما الشركة، وقاربت المكاتب بين جسديهما، فإن بين أرواحهما من المسافة مثلما بين الثرى والثريا.

تابعه «علي» بنظراتٍ تطفح غيظًا وهو يسير خلف المدير لاهثًا، يترجرج كرشه، بينما «سند بيه» يسير منتفخًا يضحك على الدعابات السمجة التي يسكبها «سعيد» في أذنه، إلا أنها تلقى استحسانه وتداعب إحساسه المفرط بالعظمة، وإن كان للحقيقة يشعر بعظمة نفسه وينتفخ غروره دون حاجة إلى مجهودات «سعيد» المضنية.

أزاح اللابتوب جانبًا، وأمسك بهاتفه مترددًا، هل يتصل بـ «سما» ليطمئن عليها؟ أعجزه خوفه من أن تتجاهل اتصاله، سيقتله هذا حزنًا بشكل لا يظن أنه يحتمله في هذا الصباح الثقيل.

فتح الـ «واتساب»، وأخذ يطالع الصورة التي وضعتها، هو من التقط لها هذه الصورة بجوار النيل، مثلما اعتاد أن يلتقط لها العديد من الصور في كل نزهاتهما معًا، كان قلبه يحتفظ بكل صورة لها داخله سابقًا ذاكرة الهاتف وكاميرته، حتى يظن أنه لو أصيب بالعمى يومًا ما، سيميزها قلبه بين مليون شخص بسهولة: الملامح المحفورة في القلب لا تنسى أبدًا.

ارتسم وجهها في خياله، سرح في عينيها الجميلتين المميزتين، كم شَعَر بالضعف أمامهما! في كل مرة كانت تقترح عليه شيئًا يرفضه في داخله، أو ترفض شيئًا يرغب فيه بشدة، كانت تكفيه من هاتين العينين نظرة مطولة لينصاع راضيًا، حتى وإن أذاقه عقله المرارة فيما بعد.. في كل مرة كان يبرر الأمر لنفسه أنه يرضيها لأنه يحبها، وأنه راضٍ لرضاها وسعيد لسعادتها، لكنه في قرارة روحه كان يدرك أن

كل هذا مجرد وهم، لم يكن راضيًا، بل برر ضعفه بهذا الرضا الوهمي عن حياة لم يختر منها إلا أقل القليل.

قرر أن يتخلص من تردده دفعة واحدة، تجاهل وخز عقله وتأنيب كرامته، وضغط زر الاتصال.

ثوانٍ مرّت بثقل ضاغط على روحه، يتردد صوت الرنين في أذنه دون إجابة، حتى انقطع الاتصال.

ظلّ ناظرًا إلى الشاشة في حسرة، متجرعًا مرارة التجاهل، لم يقتله أبدًا شيء كما يفعل التجاهل به. أن تتنازل وتقدم كل التضحيات وفي المقابل لا تحصل على أي شيء، مهما فتحت أبوابك الواسعة لمن تحب تجدهم يغلقون في وجهك نوافذهم الضيقة. سقط قلبه في جوفه وشعر أنه مختنق يبحث عن بضع نسمات من الهواء تنقذه، لكنه لا يجد سوى حبيبات الحسرة الثقيلة الخشنة تملأ تجاويف صدره.

ترك الهاتف يسقط على سطح مكتبه، وعاد إلى شاشة اللابتوب، حاول الانشغال باستكمال عمل لا يدرك ما هو، والانشغال بأمور لا ينتبه إليها، ليهرب من ألمه بأي وسيلة.

في لحظات كهذه تغرس بذور الفراق في العديد من قصص الحب، لحظات قصيرة عابرة، لا نعلم –ونحن نعيشها– أنها بداية النهاية لفصل رئيسي من فصول الحياة.. أو ربما الفصل الذي تتوقف عنده الحياة، مؤقتًا أو إلى الأبد.

4

في قرارة نفسها، لا تعرف «سما» لماذا تجاهلت اتصال زوجها، رغم أنها ابتسمت فور رؤيتها اسمه يسطع على شاشة هاتفها.. إلا أن شيئًا ما بداخلها منعها من الرد عليه، ظلّت تحدّق في الشاشة لثوانٍ، ثم ضغطت على زر إغلاق صوت الرنين، ووضعته على سطح مكتبها بحزم، والتفتت إلى شاشة الكمبيوتر.

رفضت دومًا الإقرار بالأمر، حتى لو بينها وبين نفسها، وهو أن في داخلها رصيدًا متراكمًا من القسوة ما زال يضغط عليها كلما تم استدعاؤه، حتى لو من خلال أبسط الأشياء.. مجرد إحساسها أن أحد المقرّبين منها على استعداد لهجرها، أو الاستغناء عن وجودها قربًا منه، يجعلها تبادر فورًا بالهجوم، تهمّشه دون ترتيبات مسبقة.

في داخلها جرح غائر لم يندمل أبدًا.. فشلت في مداواته، فاكتفت في مواراته بعيدًا عن الأعين، بعيدًا حتى عن إدراكها الشخصي، لا تفكر به وتتجنبه بكافة السبل الممكنة، إلا أن التجاهل لا ينفي الوجود، لا ينفع معه قناع السخرية الذي ترتديه أحيانًا، ولا الانغماس في أداء المهمات الوظيفية الروتينية والمعقدة، ولا الحدّة التي صبغت بها شخصيتها في التعامل، حتى مع أقرب الناس إلى قلبها.

ببعض من التأمل لا يمكنك أن تلومها بقلب مستريح، لا يمكنك أن تكون إنسانًا سعيدًا وذكراك الرئيسية التي تحملها من طفولتك كلها تعيسة ومؤذية. تتذكر «سما» عندما استيقظت قبل الفجر بقليل على صوت يشبه الفرقعة، قامت مفزوعة تحتضن عروستها المفضلة، بعقل طفلة لم تتجاوز التسعة أعوام، ظنّ عقلها أن قنبلة ما قد انفجرت بالقرب منها، ولم تدرك أنه باب الشقة تم إغلاقه بعنف لا أكثر.. جرت مفزوعة إلى الخارج، عبرت الطرقة إلى غرفة أبيها وأمها، لم تستأذن كعادتها، لم تطرق الباب، بل دفعته بكلتا يديها بدافع الخوف، وعيناها مصوبتان تجاه الفراش، تبحث عن أمها بكل الخوف والاشتياق لضمة تطمئنها، لكنها لم تجد أحدًا، قبل أن تسمع نهنهة خافتة قادمة من كومة بشرية ملقاة إلى جوار الفراش من الجهة الأخرى، فتراجعت لتضيء النور، لتنظر مرة أخرى، ليطالعها المشهد الذي سيزور كوابيسها في الصحو والنوم لسنوات قادمة: أمها الرقيقة ملقاة على الأرض، في ثياب النوم، تطالعها بنظرة يمتزج الانكسار فيها بقلة الحيلة، عارية من كل شيء حتى كرامتها. النظرة، تلك النظرة بالتحديد، ستطاردها لسنوات، مشكّلة كل ما يأتي بعدها.

حاربت الأم لسنوات كي تبقي صراعها مع الأب بعيدًا عن ابنتها، كذبت عليها بشأن غيابه شبه التام عن المنزل مختلقة شتى المبررات، وضعتها في نظام صارم يضمن ألا تحتك بالأب في ساعات وجوده النادرة في المنزل.. حتى الكدمات البسيطة التي كانت تنتشر في جسدها أحيانًا إثر ضرباته أخفتها عن «سما»، لكن كل شيء انكشف في تلك اللحظة، وتعرّت الحقيقة في صورة كدمة زرقاء في مرحلة التكوّن

حول عين الأم اليسرى، بينما الطفلة تقف أمامها مرتجفة، تمسك عروستها المدلاة إلى الأرض. لم تمتلك أمها ما يكفي من التماسك أمامها، لكنها استجمعت ما تبقى من عزيمتها، وجذبت الفتاة في حضنها.

- إيه اللي صحاكِ بس يا حبيبتي؟

لم تمتلك «سما» من القوة ما يكفي إلا للنطق بكلمة واحدة:

- الباب!

ضمّتها الأم أكثر كأنها ترغب في ضغطها داخلها ثانية، أن تعيدها إلى رحمها حتى ترحمها من هذا الواقع الذي يشوهه أب لا رحمة في قلبه.. ظلت «سما» بين ذراعي أمها، وكلاهما ترتجفان.

بعد عام سيرحل الأب من المنزل بلا عودة.. سيغيب حقيقةً، بعدما عاش معهما حاضرًا غائبًا.

لا يمكنك أن تلوم «سما» باسترخاء على امتلاكها هذا الرصيد الهائل من القسوة، لكن لا أحد يعرف عن هذه الحقيقة شيئًا، بعد أن تعمدت إخفاءها بصرامة من شريط حياتها، حتى «عليّ» لا يعرف عن علاقتها بأبيها وظروف نشأتها إلا بعض القشور، والتي عرف معظمها من أمها وليس منها، إلا أنه كان متأكدًا أن علاقتها بأبيها لم تكن جيدة أو حتى وديّة أبدًا، كانت تتجنب ذكر سيرته كأنه لم يوجد قط.

حاولتِ استجماع كل تركيزها وصرف ذهنها عن التفكير في شجارها الزوجي، وهذه إحدى المهارات التي تعلّمتها من العمل، أن تكون موظفًا بارزًا في شركة تداول أوراق مالية كبرى، يعني أن تترك همومك الشخصية بجوار جهاز البصمة في الخارج. أنت هنا لست إنسانًا بقدر ما أنت آلة، قد تتسبب هفوة منها في خسارة تكبّد الملايين.

على الجهة الأخرى، وبمرور ساعات اليوم، تدحرجت شعلة الغضب في نفس «عليّ» حتى أصبحت كرة من اللهب تستعد لالتهام كل ما في طريقها.. على عكس طبيعته الهادئة، المستعدة لاختلاق الأعذار لمن يحب، حتى لو كان في داخله يعلم قدر تقصيرهم أو خطأهم، إلا أنه في هذه المرة، وبعد تجاهل اتصاله الصباحيّ الذي ظنه خطوة لطيفة منه رغم شجار أمس، لم يعد قادرًا على كبت غضبه، وكأنه ينتقم لكل المرّات التي تجاوز وتجاهل فيها حزنه وغضبه من قبل.

لم يكره فيها شيئًا إلا هذه القسوة التي تبادره بها عند الغضب، لم يستوعب أبدًا كيف يمكن أن ينقلب الإنسان في مواضع الخلاف للنقيض بهذا الشكل.

قضى يومه في العمل متجنبًا الجميع، حتى «رامي» الوحيد الذي يمتلك معه علاقة ودية خارج إطار العمل في هذا المكان، لم يستجب إلى مزاحه المعتاد، عندما جلس أمامه على المكتب بمؤخرته السمينة، وقال بصوت مجلجل كعادته:

- صباح الجمال والكريستال يا حاج.

غمغم «علي» بشيء ما يرد تحيته، فأدرك «رامي» على الفور أن هناك شيئًا ما خاطئًا.. «علي» هادئ الطباع، لكنه يمتلك حسًّا فكاهيًّا ربما كان السبب الرئيسي لتقاربهما منذ المرة الأولى التي رآه فيها على

أحد مقاهي وسط المدينة.. نزل من فوق المكتب، وسحب كرسيًّا وجلس بالقرب منه، وسأله باهتمام صادق:

- ما لك؟ أنت متخانق معاها ولا إيه؟

هزّ «علي» رأسه بضيق مؤكدًا على كلام صديقه، ثم التفت إليه وسأله بغتة:

– صحيح يا «رامي» أنا أعرفك من يجي 4 سنين بس عمري ما سألتك، أنت ليه ما فكرتش تتجوز ولا حتى بتسعى للموضوع؟

"رامي» متعدد العلاقات، وصاحب التعارفات العابرة، لكنه في قرارة نفسه يخشى الزواج كما يخشى الموت. لم ير أو يسمع عنه إلا المصائب منذ وعى على الدنيا، فظل بالنسبة إليه خطوة مؤجلة، لا يرى فيها إلا تعيطلًا لحياته التي كان راضيًا عنها، رغم ما فيها من مصاعب.. اقترب منه «رامي»، كأنه سيهمس له بسر خطير، فاقترب «علي» بالتبعية ظنًّا أن في الأمر ما يستدعي هذا التقارب:

– أنا هقولك الصراحة.. من يجي 5 سنين حبيت واحدة قوي، وكنت خلاص هخطبها، بس قبل ما أروح أتقدم لها بأسبوع حصل حاجة غيّرت كل حاجة.

فانتبه «علي» إلى الكلام، ظنًّا منه أنه أخيرًا سيرى في «رامي» ما هو أبعد من السخرية الدائمة من كل شيء، رغم جديته في العمل إلا أنه لا يتوقف عن المزاح حتى في أكثر أوقات انشغاله.. أكمل «رامي» حديثه بصوت جاد يبدو متأثرًا:

– لقيتها جاية تقولي إني لازم أخس عشان صحتي، وعشان شكلي يبقى لايق على شخصيتي.. ما ضحكش عليك ما فهمتش إيه موضوع شكلي يبقى لايق على شخصيتي ده، تقولش أنا تخين وشخصيتي عاملة دايت؟! الظريف أنها كانت بتقولي كدة في نفس اللحظة اللي الجرسون بينزل فيها قدامي طبق مكرونة بالسي فود سخن وريحته تجلي القلب الحزين، ففكرت لثانية في كلامها وفي الطبق اللي قدامي، ولقيت إن حبي للأكل أكبر من إني أتخلى عنه عشانها يا «علي».

وانفجر ضاحكًا كعادته، فهو دومًا أول من يضحك على نكاته.. ابتسم «علي» متجرعًا المقلب الذي ظنه على عكس حقيقته من فرط جدية «رامي» وهو يحكي له.

لكن ما لم يعرفه «علي»، أن معظم هذه الحكاية حقيقية بالفعل، إلا أن صاحبها أضفى على نهايتها بعض الزيف الساخر، فلقد أحبّ بالفعل فتاةً منذ خمس سنوات، وتركته بحجة سمنته، وكأنها اكتشفت متأخرًا أنها لا تناسب الرجل الذي يستحق أن تمنحه نفسها، لكن الحقيقة أنها لم تحبه ولو ليوم واحد، وهذا ما لم يفهمه «رامي» المسكين أبدًا، لا قبل انتهاء العلاقة ولا بعدها. فقد كانت تأمل أن تغير من وضعها بالاقتراب من «رامي» صاحب الحياة الميسورة بقدر ما، ليس هذا فقط، ولكن لأنه كان الوحيد الذي أعلن لها حبه، فهي لم تصادف قط أي رجل يعلن عن إعجابه بها فضلًا عن حبه.

كانت فاقدة للثقة بنفسها تمامًا، لا تشعر أنها مرغوبة نظرًا إلى جمالها المتواضع، رغم أنها لم تكن دميمة أو قبيحة، كانت فتاة عادية كأغلب الفتيات، لها جمال ظاهري بسيط، لكن الحقيقة أن القبح كان في داخلها لا في خارجها، الدمامة كانت تشوه روحها وليس وجهها، فإن عزوف الرجال عنها ولّد الحقد والكراهية بداخلها، وجعل منها ناكرة لكل يد تمتد إليها أو كل قلب يميل إليها إذا أحسّت أنه ضعيف، فَرِقّة «رامي» معها واستجابته لها، صنعا بداخلها تمردًا عليه، فأصبحت ترى أنه لم يحبها إلا لأنه هين في نفسه، قليل في حد ذاته، ولذلك رضي بها حبيبة، حتى أصبح حبه لها دليلًا على حقارة منزلتها! وكلما اشتد حبه لها كلما زادت نفورًا منه، وما إن لاحت لها فرصة اقتراب شخص جديد منها كان زميلًا لها في عملها حتى استجابت له، خاصة أنه كان قوي الشخصية، أو بمعنى أدق قوي الشكيمة يستطيع قهرها والتعالي عليها طيلة الوقت، فقارنت بين قوته ورقة «رامي» فرجحت كفة قوته. وعندما قررت أن تترك «رامي» لم تتحرج من ذلك، ولم تحاول ولو على سبيل المجاملة أن تتركه بشيء من اللطف أو تخترع حجة تافهة تبرر بها تركه، بل تعمدت أن تتركه بالطريقة الأشد قسوة والأكثر خسة، أن تعيره بهيئته وشكله، كأنها تنتقم منه لفقدان ثقتها في هيئتها هي وشكلها، تركته بعد أن أفرغ في حبها كل طاقة امتلكها من المحبة، وتركته فارغًا، لا يجد في روحه القوة على الالتزام في علاقة جادة أخرى، أو التصديق في إمكانية وجود حب حقيقي من الأساس.. فاكتفى ببعض العلاقات العابرة السريعة، علاقات خالية من أي هدف سوى المتعة الزائفة، والنسيان المتعمد، والهروب المرضي.

لم تنجح محاولات «رامي» في التخفيف عن «علي» طيلة اليوم، ظلّت كرة الغضب تتأرجح داخله، فغادر في نهاية يوم العمل وهو عازم على إحداث تغيير ما، في رتابة حياته التعيسة هذه.. واضعًا نصب عينيه –ولأول مرة ربما في حياته– هدفًا واحدًا دون أن يتضمن إرضاء الآخرين: يريد أن يتذوق السعادة من جديد.

5

اعتاد «علي» أن يكبت إحساسه ورغباته في أغلب الأحيان، تكلّف الأمر الكثير من المجهود والمثابرة حتى اعتاده، أصبح قادرًا على التشكّل بما يناسب الظروف، محاولًا تحقيق بعض مما يرغب عن طريق الاحتيال على القواعد التي وضعها غيره له.. وهكذا اعتاد الحياة في خطين متوازيين: حياة رئيسية يرضي فيها شخصًا يحبه، وحياة فرعية ترضيه هو، يفعل خلالها ما يرغب بالفعل في تحقيقه، لا ما يريح شخصًا عزيزًا عليه.

أخبرته أمه أنه يجب ألا يكسر أملها واستثمارها فيه، يجب أن يصبح مهندسًا كما حلمت له منذ لاحظت براعته في الرياضيات وهو في الإعدادية.. خاف أن يخبرها أنه يهوى الأدب والكتابة أضعاف حبه للرياضيات، فأصبح مهندسًا كما أرادت له، قضى خمس سنوات من الضغط العصبي في الكلية لينجح بتقدير لا يقل عن جيد، لأنه لن يتحمل لومها أبدًا، وعلى الهامش دخل إلى عالم الكتابة الذي حلم به منذ كان مراهقًا، عن طريق بوابة الصحافة.. كانت براعته تفوق تخيلاته هو شخصيًّا، لم يظن في نفسه أنه يحمل بذرة الكاتب الصحفي، وساعدته قراءاته المتنوعة على إثراء مقالاته المعلوماتية بحس أدبي لم تخطئه عين عشرات الصحف والمواقع، التي استكتبته في زمن زخم الصحافة عقب ثورة يناير.

قضى عاميه الأخيرين في الكلية موزعًا بين الدراسة بتعقيداتها، والعمل الصحفي بمجهوده الذي أحبّه رغم ضيق وقته، وساعد وجود دخل مادي يخصه هو لأول مرة، على تمسّكه بالعمل الصحفي أكثر، والتجويد فيه أكثر فأكثر. ليظل متنقلًا بين عالمين لا يربطهما شيء: الأول عالم يرضي أحبابه والثاني عالم يرضيه، وهكذا أصبح يتخلص من كبته وقلقه المتراكم من عالمه الأول في عالمه الثاني، الأول كان الداء والثاني هو الدواء.

تمدد على الأريكة العريضة في صالة شقته.. نفدت ساعات النهار، واقترب حلول الليل بظلامه ووحشته.. كم يبدو الليل موحشًا في تلك المدن الجديدة.. رغم أناقة المنطقة التي يسكن بها، مقارنة بما آل إليه حال معظم مناطق القاهرة، إلا أنه يفتقد القاهرة بزخمها وحيويتها، بل وبوحشية زحامها الذي لم يدرك كم كان جزءًا منه إلا عندما نزعه الزواج منه نزعًا.

تكاسل عن تحضير طعام ساخن ليأكله، حتى فكرة طلب طعام جاهز بدت إليه عبثية، يطلب طعامًا لذيذًا ليأكله وحده، وهل هناك أشد بؤسًا من رجل يأكل وحيدًا في بيت لم يشعر أبدًا أنه بيته! اكتفى بشطيرتين من الخبز والجبن.. أكلهما دون اكتراث، وللحظات شعر برثاء عظيم تجاه نفسه.

خلال أحد شجاراتهما، أخبرته «سما» –بصوت عالٍ يقترب من درجة الصراخ– أن مشكلته الأساسية في الحياة أنه يتعامل مع ذاته على أنه شخصية روائية، فيبالغ في تقدير كل شيء، ويتمادى في ردود أفعال لا داعي لها، ويفسّر الأحداث اليومية بما لا تحتمله.. ابتلع يومها غضبه، كما اعتاد أن يفعل منذ بكارة عهده بالدنيا، واكتفى بأن رماها بنظرة طويلة، ودخل لينعزل في حجرة مكتبه.

لم تكن «سما» على خطأ في وجهة نظرها تجاه زوجها، رغم صلافة أسلوبها وقسوته.. لكنها تناست شيئًا واحدًا مهمًا على بساطته، فلولا روائية طباع شخصيته لما رأى فيها ما يجعله يحبها، بل ويختارها ليقتسم معها حياته، رغم صعوبة طباعها التي يعرفها الجميع عنها حتى أمها.. الحب وحده يجعلك تفسّر أقسى التصرّفات بشكل جميل، غالبًا يخالف واقع الأمور، لكنه يرضي قلبك.. وهذا ما فعله «عليّ» معها غالبًا، إلا أن روائية طباعه كانت سلاحًا ذا حدين، فإنه على قدر سلبيته ونظرته الحالمة نوعًا ما لما يجري حوله، بل وميله إلى تأمل مجريات أحداث حياته كأنها تخص شخصًا غيره، إلا أنه –وفي قرارة نفسه، ودون قصد منه– كان يختزن الغضب، والإحساس بالظلم، واعتمل الدخان الأسود في صدره، وشيئًا فشيئًا، وكما تجري الأمور غالبًا، لم يعد الحب بهذا الوضوح الذي كان عليه في بداياته.

دخل إلى فراشه مبكرًا، على غير عادته.. وفي الظلام اشتعلت الأفكار في رأسه، حتى أحس أن ثعابين عدة تأكل مخه أكلًا، في الليل ينام الكون كله، ويستيقظ الحنين.

تحسس الفراش البارد إلى جواره، وتمنّى لو كانت هنا.. رغم غضبه منها، رغم حزنه، رغم انكسار أشياء عدة بداخله، رغم خوفه من عدم إمكانية استمرار علاقتهما فترة أطول مما انقضى من وقت، أحس تجاهها بالافتقاد الشديد. لم يكن يعرف هل حنينه إلى الحبيبة أكثر أم إلى الرفيقة؟ أهو فقدان لقلب يعشقه أم هو افتقاد لإنسان يألفه؟ اختلطت الأمور عليه، فلم يعد يعرف هل هو الحب أم التعود؟ لكن الشيء الوحيد الذي كان واثقًا منه، أنها –ورغم كل شيء– قد أوحشته.

استيقظ متعكر المزاج، بعد نوم مرهق لم يتجاوز الساعتين، وفور استيقاظه اتخذ قرارًا لم يتوقع أن يلجأ له، لإلمامه بتبعاته.. سيعود إلى العيش برفقة أمه لفترة مؤقتة.. يبدو أنه كان يفتقد الونس لا الحبيبة!

لكن هل ستكون إقامته عند والدته مؤقتة فعلًا؟ هكذا سأل نفسه، وتهرّب من الإجابة.. لم يعد متأكدًا من شيء، إلا أن تحمّل طباع أمه الصعبة سيكون أسهل من الوحدة التي قد تقضي على ما تبقى من تماسكه النفسي.

رفقة أمه ليست بالرفقة المؤنسة، فمصاعب القرب منها لا تنتهي، فهي كما هي، متسلطة متحكمة في كل ما يخصه، لكن إلى من يلجأ المرء حين يضيق به عالمه؟ ليس في الكون متسع يريح الرجل فيه رأسه مثل حضن أمه، حتى لو كانت أكثر الأمهات تعنتًا. على الأقل يمكن أن يجمع شتاته لديها وهو في هذه الحال، فهو لم يكن مشتتًا طوال حياته كما هو الآن.

6

وضع فنجان القهوة الفارغ فوق الصينية المعدنية الصغيرة، وفرد ساقيه قدر استطاعته، لم يحب شيئًا في حياته بقدر حبه للجلوس على مقهى قليل الزحام مثل هذا.. لم يتحمل البقاء في منزل أمه لوقت طويل بعد تناول الغداء.. لم تتغير أبدًا، هي كما هي: طيبة القلب، المجهود الوافر في خدمته وتلبية احتياجاته، وكذلك اللسان اللاذع والحس الانتقادي الذي يجيد التقاط الناقص في كل شيء، مهما بدا جميلًا مكتملًا.

مرت ثلاثة أيام على فراقه المؤقت لزوجته، أم نقول فراقها له؟

تشجّع بعد تردد –كعادته– وحمل بعضًا من ملابسه ومتاعه إلى منزل الأم، التي لم تبدِ اندهاشًا بقدومه، بعد انقضاء يومه في العمل، بل كانت تتوقعه، فقد هاتفتها «سما» منذ يومين، لتحكي لها نسختها الخاصة مما جرى. لا نقول إن «سما» زيفت ما حدث أو قلبت الحقائق، فهذه ليست شخصيتها، لكنها نقلت الموقف من وجهة نظرها، وكما هو حال البشر جميعًا، فإن كلًّا منّا يمتلك نسخة شخصية لذات الحدث، يصمم أنها الحقيقة المطلقة، رغم ما ينطبع فيها من هواه الشخصي.

اعتاد «علي» أن تحوز زوجته على تعاطف أمه وتحيّزها شبه الدائم في صفها، بينما يميل قلب أم زوجته إليه بشكل كبير، كأنها صفقة عادلة أو نوع من التعويض القدري، الذي كثيرًا ما يغلف أصعب المآسي بلمسة لطف حانية تخفف من وقع المأساة من حولنا. ولمعرفته بميل أمها إليه فقد شجّع نفسه أن يتصل بها أمس، ليطمئن منها على «سما»، في مكالمة قصيرة، اختتمتها الأم الودودة بسيل من الدعوات والأمنيات بصلاح الأحوال بينهما.

خلال اليومين الماضيين لم يشغل ذهنه كثيرًا بالتفكير فيما سوف يحدث بينه وبين «سما»، ترك الأمر معلّقًا كأنه لا يخصه، معتقدًا أنه لا يملك في الوقت الحالي ما يمكّنه إصلاح الوضع، دون تقديم تنازلات لم يعد يستطيع أن يقدمها كما اعتاد، نعتذر عن أخطاء لم نرتكبها، بدافع الحب، وعندما يتصدع هذا الحب ويهتز، تصبح هذه الاعتذارات ثقيلة، أثقل من جبل على نفس صاحبها عندما يتذكرها، ويتذكر كم كان ضعيفًا! فتصبح كل تضحية سابقة مثل ندبة في الوجه، تؤلم كبرياءنا، وتؤرق كرامتنا، فهذه القسوة تدفعنا لتغيير نظرتنا لكل ما نقوم به، بل وبكل ما فعلناه سابقًا، نحاسب أنفسنا بقسوة ونعاقبها على كل يوم تسامحت فيه مع من أساؤوا إليها.

استعاد شيئًا من هدوء نفسه بانتقاله إلى بيت أمه، سقط شعوره بالوحدة، لكنه في الوقت ذاته استبدل قسوة زوجته باستبداد أمه، لكن لا بأس كل شيء يهون أمام تخلص الإنسان من وحدته، الفراغ قاتل، يضخم أحزانك وتقف أمام أحزانك ليلًا وجهًا لوجه، لا تجد مفرًّا منها، إذ إن خصمك يقبع داخل روحك، قلبك، عقلك، إنه يحاصرك من الداخل.

طعام أمه لذيذ، كم كان يفتقده! في طعام الأم دومًا شيء من عاطفتها التي لن تجدها عند أحد آخر.. لكن ما لم يفتقده أبدًا حدة طباعها. توتر الجو تمامًا، عندما ظلت أمه تصرخ عبر الموبايل في وجه أخته «آية»، التي تزوجت وتعيش في دبي منذ عدة سنوات.. والسبب أنها علمت عن طريق الصدفة أن الابنة اتصلت بأبيها لتطمئن على صحته في مكالمة عابرة لم تتجاوز عدة دقائق، عدة دقائق كانت كافية لتعتبرها الأم ناكرة للجميل، ومشتاقة إلى حضن أبيها الذي تخلى عنهم، ولم يسأل عن ابنته بعد الانفصال، إلا بحضور زفافها والتأنق أمام عدسات التصوير، وتبادّل الابتسامات مع الأقارب والحضور.

لم يتواصل «علي» مع أبيه، منذ ترك المنزل وانفصل عن أمه وهو في الصف الأول الثانوي.. لم يكن هجره لوالده خضوعًا لتعليمات الأم الصارمة بوجوب مقاطعته لتخليه عنهم، إذ لم ير «علي» أن أباه تخلى عنهم من الأساس، ابتعاد أبيه كان عن صحبة أمه، التي لا يتصور هو نفسه أن يتحملها كزوجة لشهرٍ واحد. تجنب «عليّ» والده هروبًا من الصراع الدائر بينه وبين والدته كحرب باردة، يسعى كل طرف فيها لاستغلال كل أسلحته المتاحة، وكل منهما يريد إثبات عدالة معركته عن طريق الأبناء، فمن يميل إليه الأبناء هو من على الحق ولا شك، فاختار «علي» أن يهرب من هذه المعركة كما اعتاد أن يهرب من كثير من الأشياء المعلّقة دومًا في حياته.. ورغم قناعته بهذه الأفكار وتفهّمه لموقف أبيه، إلا أنه لم يستطع أن يغفر له بالكامل، ففي النهاية هناك حربٌ اشتعلت، وهناك فاتورة تم دفعها، والثمن كان من قلب «علي» وأخته.

يمتد المقهى من ناصية أحد ميادين وسط المدينة، إلى شارع جانبي يربط الميدان بشارع رئيسي موازٍ له.. يمكن للجالس على الرصيف في هذا الشارع الجانبي –الذي يبدو كممر نصف معتم بعد حلول المساء– أن يشاهد جزءًا كبيرًا من المقهى في داخله: الشبابيك الخشبية العالية، والمرايا المنتشرة، علامتان تميزان المكان من الداخل، رواده خليط متمايز يغلب عليه مجموعات أرباب المعاشات، وبعض مجموعات أخرى تقليدية من المنتشرة عادة في مقاهي وسط المدينة.

ركز «علي» بصره على شلة بعينها، ثلاثة يبدو أصغرهم تجاوز الستين من عمره، يلعب اثنان منهم الطاولة، والثالث يتابع المباراة الدائرة في حماس، متناغمون دومًا، متحمسون في جدية لا تناسب أجواء اللعب، لكن السعادة تغطي الملامح المتغضنة بفعل مرور السنوات.. حفظ «علي» ملامح الثلاثة لكثرة ما جلس عبر السنوات يتأملهم من نفس المكان تقريبًا، اثنان منهم صلع الرأس تمامًا، أحدهما تميل بشرته إلى السمرة بشكل يذكره بأحد الممثلين الذين اعتادوا لعب دور الساعي في أفلام الأبيض والأسود، والآخر أبيض البشرة له أنف كبير مميز ومحمّر البشرة دائمًا من فرط انفعاله فهو أعلاهما صوتًا وأكثرهما حماسًا في اللعب، وثالثهما يبدو أكثرهم وقارًا، له شعر ناعم متطاير في تناسق، خصلاته لها لون الفضة، وملامح وجهه متناسقة إلى حد كبير، تميزه تلك الذقن العريضة التي تضفي عليه وسامة لم تتأثر بعمره، وقد زاده الشيب تألقًا.

على مدار سنوات، منذ دخل الكلية، وحتى بعد أن انقطعت علاقته بوسط المدينة، أو كادت أن تنقطع، لم يتوقف عن المجيء إلى هذا المقهى على فترات متفاوتة، ليتابع عن بعد –وباستمتاع– هذه الشلة الثلاثية، التي يبدو أنها لا تزال تستمتع بالحياة، ولو خلال ساعتين من لعب الطاولة.

كان «على» يحسدهم على قدرتهم المدهشة على تحقيق متعتهم واقتناص سعادتهم من فم العالم المتوحّش، لماذا وهو في مقتبل العمر لم يستطع أن يحقق شيئًا مما حققه هؤلاء العجائز بسهولة ويسر! قطعًا هو يفهم أن الطاولة ليست هي سر السعادة، ولا المقهى الذي يجلسون عليه، بل ولا حتى صحبتهم اللطيفة؛ بل إن السعادة متأصلة في فلسفة حياتهم، في طريقة تفكيرهم، في حكمتهم التي جعلت أبسط الأشياء تسعدهم. تمنى لو يذهب إليهم ويسألهم متوسلًا أن يتصدقوا عليه بهذا السر، أن يخبروه بمعالم هذا الطريق الذي سلكوه حتى بلغوا تلك السعادة، وهل يمكن لأي أحد أن يفعل ما فعلوه، أم أن السعادة ليست للجميع؟! لكن مهما حدث سيظل يواصل بحثه عن سعادته وإن كلفه الأمر كل شيء.

بعيدًا عن حلم البحث عن السعادة، التي أقنع «علي» نفسه بها مؤقتًا كهدف للمرحلة المتخبطة التي يعيشها، إلا أنه في واقع الأمر كان راغبًا في استعادة ذاته القديمة التي ألقاها بكل قوته خلف ظهره، منذ تغيّرت خطط حياته كلها للزواج بـ «سما».. راغبًا في استعادة شغفه بوسط المدينة التي كانت بؤرة هذا العالم الذي قد انتمى إليه يومًا ما، بكل ما فيها من أشياء يحبها وأكثر لا يحبها، وعالم الكتابة بصراعاته الجادة والتافهة، الدونية والمتحضرة منها، وعالم الصحافة الثقافية بكل ما فيه من جمال فاتن وقبح يكاد يجعلك تتقيأ من فرط فجاجته.. لم يجد «علي» نفسه إلا هنا، وجدها كما يحب، وكما يرضى، وكما يتمنى.. هنا فقط لم يسع لإرضاء أمه أو زوجته، لم يرغب في إثبات أي شيء لأي أحد، سوى الاستمتاع بالكتابة التي عشقها، ثم وضعها خلف ظهره، بحثًا عن استقرار مادي. ذاك الاستقرار الذي استمتع به بالفعل في وظيفته، ذاك الاستقرار الملعون الذي جعله يتجرع مرارة وظيفة تقبّلها دون رضى، ولا شغف، إنما فقط لأجل من يحبهم.

سحب «رامي» كرسيًّا، وجلس إلى جواره وهو يتعرق بغزارة كعادته، وألقى بجسده على الكرسي الخشبي وهو يسب ما حوله دون سبب واضح، ثم قال له ساخطًا:

– أنا مش فاهم بتحب القهوة دي على إيه يعني! مشاريب زي النيلة، وكراسي ما يتقعدش عليه، وشارع مليان كلاب مسعورة.. لعلمك الكلب الأسود اللي في آخر الشارع ده كان هيهبشني وأنا جاي والله.

ضحك «علي» رغمًا عنه وهو ينظر إليه.. رغم أنه ليس صديقًا مقربًا بما تعنيه الكلمة، إلا أنه لا ينكر أبدًا أنه يحب «رامي» من كل قلبه، يراه طفلًا نزقًا، حتى تذمره شبه الدائم هذا يضيف له طابعًا طفوليًّا لا تخطئه العين.

أشار «علي» إلى القهوجي بيده اليمنى ليأتي، ثم التفت إلى «رامي» قائلًا له:

- مش هتبطل معيلة بقى؟ مش أنتَ اللي قايلي إمبارح إني لما أنزل وسط البلد لازم أكلمك؟! وبعدين إيه كل العرق ده؟ ده أنت ساكن على بعد 5 دقايق من هنا يلا!

ثم بدأ يدغدغه في بطنه بكلتا يديه، و«رامي» لا يستطيع كتم ضحكاته، رغم التعبير الجاد الذي حاول عبثًا أن يرسمه على وجهه، ملامحه الطفولية، والنظارة المستديرة التي يرتديها، مع وجهه الحليق الغارق في كومة من العرق، كل هذا يصعب معه رسم تعابير الجدية أو ادعائها زورًا.

جاء كوب الشاي بالحليب، مشروب «رامي» المفضل، ومعه بدأ حديثه الذي يسترسل فيه دائمًا، يقص على أذني «علي» آخر مغامراته مع الفتيات، قصص يجمعها بعدها عن أي إطار جاد، مجرد تمضية وقت لا أكثر، ربما تتخللها بعض المتعة العابرة، التي سرعان ما تذوب، وينسى أصحابها وجوه بعضهم، حتى لا يكادون يتذكرون بعضهم بدقة إذا ما التقوا صدفة فيما بعد.. رغم ملامحه الطفولية وسمنته التي طالما أفقدته ثقته في نفسه، وإن كان يظهر عكس ذلك في معظم الأحيان ويسخر من الأمر كله. ورغم افتقاده لثقته بنفسه إلا أن ما ورثه عن أبيه السفير السابق بوزارة الخارجية، وكرم طباعه بالفطرة، والشقة الواسعة التي يمتلكها ويحيا بها وحيدًا في أحد أرقى شوارع وسط المدينة، كل هذه كانت عوامل كافية لجعله جذابًا لمن تفضلن الاستمتاع معه بهذه المزايا، ولو مؤقتًا أو بشكل عابر.

أخرج «علي» هاتفه من جيبه، وهو يهز رأسه متابعًا حديث صاحبه كان في حاجة لهذا القدر من الثرثرة غير المهمة، فهي على الأقل لا تتطلب قدرًا كبيرًا من التركيز، وهذا هو المطلوب تمامًا، فإن أهم ما يرغب فيه حاليًّا هو تشتيت ذهنه عما يجب أن يشغل باله به فعليًّا.

*****

أخذ يتابع آخر مستجدات الحملة الدعائية التي وضع لمساتها الأخيرة منذ أيام، ووجد أن الأمور تسير على أفضل ما يرام، لا يحتاج الأمر ذكاءً كبيرًا كما يشعره بعض من يعملون معه، مما جعله عاجزًا عن تصديق نظرات الانبهار التي تطالعه عندما يقترح أفكار الحملة الجديدة في كل مرة، عندما تأتيهم إحدى الشركات طالبة التسويق لمنتجاتها.. ما زال مستخدمو السوشيال ميديا يقتنعون بذات الخدع مستمتعين بدور ضحية الغش، فيصدقون أن المنتج المستهدف جميل وجذاب لمجرد أنهم أحضروا الفتاة المناسبة لتجربه في فيديو قصير أمام نظراتهم، وكأن سبب جمالها -مثلًا- هو فعالية هذا المنتج التجميلي بالفعل، مع أنها شخصية مشهورة، ولها مئات الصور المنشورة، والجميع يعرفون أنها جميلة بالفعل ولا علاقة بالمنتج المعلن عنه بالأمر، إلا أنهم يصدقون، كل مرة يصدقون! خصوصًا إذا ما كانت الفتاة ذكية ولبقة بما يكفي لتحفظ ما كتبه لها «علي» من عبارات، وتلقيها بحماس مناسب أمام شاشة هاتفها.

بعدما اطمأن على سير العمل بنجاح، أمسك هاتفه ودخل إلى حسابه الشخصي، لتواجهه صورته، تلك الصورة التي ينظر فيها بملامح هادئة بزاوية تجاور عدسة الكاميرا قليلًا، سرح للحظات يتأمل ملامحه، ملامح عادية لا يمكن حفظها بسهولة من أول لفتة، لا شيء يميز وجهه ذا السمرة الخفيفة،

سوى هذا الأنف المرسوم بعناية وبحدة عند التقائه مع وجنتيه، والذي ورثه عن أمه، عدا هذا لا شيء يميزه، أو هكذا اعتاد أن يرى في نفسه، مجرد شخص عاديّ ليس فيه ما يميزه أو يجذب الناس إليه.

رغم أنك يمكن أن تلاحظ جمال رسم عينيه بشكل واضح، تناسق حاجبيه الثقيلين مع رموشه، حتى الأسود الذي تراكم تحت جفنه السفلي –من السهر وكثرة تناول القهوة– يضفي عليه وقارًا وجاذبية، لكنه لم يعتد أن يرى الجمال في نفسه إلا في مرات نادرة.

أعادته ضربة قوية على باطن فخذه من كف «رامي» إلى الواقع مفزوعًا، قبل أن يصيح به:

- ما تسيب الموبايل ده يا عم! يعني جاي أقعد معاك عشان تفضل لازق عينيك فيه؟! ما تخلي عندك دم يا «علي» وتركز معايا شوية.

تألم «علي» في صمت كاتمًا غيظه، قبل أن يلقفه سبة فاحشة تنفيسًا عن ألم الصفعة المفاجئة، فانفجر «رامي» ضاحكًا كطفل معجب بنفسه؛ لأنه نجح في إغاظة شخص يحبه، ثم دخل دون مقدمات في حديث عن إحدى الفتيات اللائي عرفهن مؤخرًا، بينما دخل «علي» إلى تطبيق الواتساب، مفتشًا بشكل عشوائي بين رسائله.. فتح المحادثة التي تجمعه بصديقه «خالد»، فوجد أن آخر كلام بينهما كان منذ ثلاثة أشهر تقريبًا.. أصابه حزن ثقيل مفاجئ، كم أبعدته الحياة حتى عن الصديق الوحيد الذي يمكن اعتباره صديقًا بحق! الوحيد الذي تمكّن معه من البوح ولو بقليل مما يشغله، والآن فقط يدرك أن فترة كهذه مرّت دون أن يعرف أي شيء جديد عنه.. دخل إلى «فيسبوك» من جديد، وبحث عن حساب «خالد»، ليجد شيئًا غريبًا: لم يقم بنشر أي تحديثات منذ شهرين ونصف تقريبًا.. صحيح أنه لم يكن معتادًا على النشر يوميًّا، إلا أنه متفاعل بشكل منتظم، ينشر شيئًا كل يومين أو ثلاثة على أقصى تقدير، حتى لو نشر رابطًا لأغنية دون تعليق.. انتابه شعور بالقلق، هناك شيء ما يجري خارجًا عن المألوف.

أسكت «رامي» بإشارة حازمة من يده، ثم رفع الهاتف إلى أذنه بعد أن ضغط زر الاتصال برقم «خالد»، ليأتيه صوت الرسالة المسجلة تخبره أن الرقم الذي اتصل به مغلقًا، فاشتعل القلق في روحه أكثر فأكثر.. وضع الهاتف على المكتب، وسأل «رامي» بصوت جاد:

- «رامي» أنت قابلت الواد «خالد» قريب؟

فهرش في رأسه كعادته عندما يحاول أن يشحذ ذهنه، ثم قال مستنكرًا:

- «خالد حكيم»؟! ما أنت عارف إني ما بطيقوش عشان لسانه طويل.. لا ما قابلتوش، يمكن آخر مرة لمحته قاعد في قهوة جنبنا هنا، من يجي 4 شهور أو أكتر، بس يومها ما سلمتش على اللي قاعدين عشان ما كنتش ناقص تريقته وسماجته.. ما لك بتسأل باهتمام وقلقان ليه؟

أخذ «علي» يشرح له ما يقلقه بذهن نصف منتبه، متذكرًا المرة الأخيرة التي قابل فيها «خالد». كانت جلسة جمعتهم ببعض الأصدقاء ممن ترشحوا إلى جائزة صحفية كبرى تصدر خارج «مصر»، يتذكر الآن حديثهم في ذلك اليوم، وكيف كانت النكات تدور عن الجائزة التي ربما تعوّضهم عن سنين السجن المحتملة التي قد يقضيها أحدهم، أو كلهم، في المستقبل القريب، بسبب ما يقومون بتصويره وكتابته..

استمرّت الجلسة يومها حتى قرب منتصف الليل، قبل أن يظهر «عمر»، صديق «خالد» وشريكه في مشروع سلسلة الصالات الرياضية التي افتتحاها منذ سنتين تقريبًا.. ما زال «علي» يتذكر تفاصيل السهرة، التي كانت شديدة اللطف حتى ظهر «عمر»، الذي لم يحبه «عليّ» أبدًا، وذلك دون سبب بعينه، لا لشيء سوى عدم ارتياح متبادل بينهما منذ التقى به. حينها قدّمه «خالد» له على أنه صديقه الجديد، كما قدّمه –فيما بعد– لمعظم رواد وسط المدينة من معارفهم.

حاول «رامي» أن يطمئنه، مؤكدًا على أنه لا داعي للقلق، فربما يكون قد اختفى رغبة في الانعزال لأي سبب شخصي لا يدعو إلى الخوف. هز «علي» رأسه موافقًا على كلمات «رامي»، إلا أن شيئًا ما بداخله كان مصممًا على أن هناك ما يدعو إلى القلق، هذه الحاسة الضبابية، التي لا نستطيع أن نثبت بها شيئًا، أو نقدم بها أدلة، لكننا ندرك جيدًا أنها تعمل بكفاءة شديدة عندما يتعلق الأمر بشخص نحبه.

7

نظر «علي» بيأس إلى يده التي آلمته من كثرة الطرق على باب شقة «خالد» دون جدوى، بينما وقف «رامي» إلى جواره مُتبرمًا، مُقترحًا أن يغادرا ويعودا في وقت لاحق.. لكن «علي» ظل مصممًا أن الشقة ليست خالية، رُغم عدم وجود أي استجابة لطرقهما المُلِح المتواصل منذ ربع ساعة تقريبًا.

أخبرته ذات الحاسة النشطة داخله تجاه مَن يحب أن «خالد» بالداخل، إلا أن «رامي» الذي لم يكن مهتمًا بالقصة كلها وجاء على سبيل المجاملة لـ «عليّ» غالبًا، كان راغبًا بِشدَّة في الانصراف.. إلا أن «علي» صمم أن يمر على البوّاب ليستفسر منه أكثر عن أحوال الشقة وقاطنها الوحيد.

رمقهم البوّاب بنظرة كسول لهُنيهة، تفحّصهم مُقيّمًا الموقف بشكل سريع، كعادة معظم مَن يعملون في هذه المهنة لفترة طويلة، ثم أخبرهم بلا مبالاة أن الأستاذ «خالد» موجود غالبًا في شقته، فهو لا يغادرها تقريبًا خلال الفترة الأخيرة، على الأقل لم يره هو يفعل هذا، حتى مصاريف صيانة البناية يضطر إلى الصعود لتحصيلها منه مع بداية كل أول شهر. ثم أشاح بوجهه عنهما تجاه شاشة تليفزيون صغير وضعه أمام غرفته التي يسكنها، وقال بنصف انتباه:

- وبرضو بفضل ملطوع قُصاد الباب بالنُص ساعة لحد ما يفوق ويفتح لي، يلا الله يعفي عنه.

وقال الدُعاء بنبرة أقرب إلى السُباب، فنفث «علي» غضبه، وأخبر «رامي» أنه سيصعد مرة أخرى للطرق طالما هو موجود غالبًا، فتبعه دون اقتناع، إلا أنه لم يشأ أن يتركه وحده على كل حال.

بعد خمس دقائق من الطرق المُستمر، وقبل أن يتسرب اليأس إلى روح «علي»، سمع أخيرًا حركة داخل الشقة، حركة خفيفة لكنها مسموعة. فبدأ في مناداة «خالد» متمسكًا بالأمل في ظهوره، قبل أن يسمع صوت سقوط جسم ثقيل أرضًا، ثم صوت سُباب ساخط غير واضح المعالم.. ثوانٍ ثقيلة انقضت قبل أن ينفتح الباب كاشفًا عن وجه ساكن الشقة أخيرًا.. فتجمد الزائران في مكانهما.

ذقن مُلوثة طالت حتى كادت تلامس صدره، ووجهه الأسمر ذو الملامح الصعيدية بدا كالحًا وكأن الدماء قد سُحبت منه، وشعره الجعد ذو الخُصل الملتوية حول نفسها، والذي اعتاد الاهتمام به وتصفيفه بأفضل أنواع الكريمات والمُرطبات، طال والتف حول نفسه بشكل عشوائي وكأنه لم يتعرض لمشط منذ عدة أسابيع.. كل هذا يهون إلى جوار ملابسه التي بدت أكثر قذارة من ملابس متشرد بالطرقات، وزاد الأمر بؤسًا بقايا القيء الواضحة أعلى القميص المنزلي الذي يرتديه، حتى البنطال طاله بعض قيء أيضًا.

نظر تجاههما بعينين مُرهقتين من إضاءة السُلم، فالظلمة في الشقة من خلفه تُفسر لِمَ لَمْ تعد عيناه تألف النور، ظلوا للحظات صامتين لا يعرفون بِمَ ينطقون من غرابة صدمة ما طالعهم، إلا أن «خالد» كان أول مَن نطق بلسان ثقيل قائلًا بمُزاح:

- إيه ده عِلوة! وكمان رامي التخين؟ لا لا ده أنا متهني الليلة دي بقى.. اتفضلوا اتفضلوا.

دلفا خلفه إلى الشقة بعيون زائغة، وبالداخل لم يكن الوضع أفضل حالًا، بل أسوأ بكثير..

استيعاب الوضع لم يكن عصيًّا على الفهم، فهذه الشقة التي تم تتعرض للتهوية منذ أسبوعين على الأقل لا تزال تحتفظ برائحة الحشيش الكثيفة، ورائحة كحول تنبعث من زجاجات خمر مُلقاة في كل جوانب الشقة تقريبًا، حتى الحمام به ثلاث زجاجات فارغة.. والآن «خالد» خاضع للتأثير القاتل لتعاطي الحشيش المُكثف مع تناول الخمور بإفراط، فبدا في حالة أقرب إلى الهذيان منها إلى السُكر.. كل هذا شيء، ورائحة النتن المُسيطرة على المكان شيء آخر.. حتى إن «رامي» دخل إلى الحمام ليُفرِغ معدته قرفًا مما طالعه داخل الشقة، وخرج ليجد «خالد» جالسًا على الأرض شبه ممدد، و«علي» يقف في أحد الأركان يحاول استيعاب الموقف، قبل أن ينظر «خالد» مُطوّلًا إلى «رامي» ويقول بلهجة شبه جادة:

- هي مامتك الله يرحمها كانت في جسمك كده يا «رامي»؟ كان الله في عون أبوك الله يرحمه!

ثم أطلق ضحكة عصبية، فزفر «رامي» غضبًا واتجه إلى «عليّ" الذي ما زال ثابتًا في وقفته، ومال ناحيته هامسًا وهو يحاول كتم أنفاسه قدر استطاعته هروبًا من الرائحة الكريهة:

- أنا لو فضلت في المكان ده دقيقة تانية هضرب الحيوان اللي نايم في الأرض ده.. أنا مش هقدر أقعد في الزريبة القذرة دي، هبقى أتصل بيك أطمن عليك بُكره.

ثم صافحه وهمَّ بالمغادرة، و«خالد» يتابعه بنظرات ناعسة راسمًا على وجهه شبح ابتسامة.

ربما لتفصيلة كهذه لم يستطع «علي» أن ينظر إلى «رامي» كونه صديقًا مُقربًا أبدًا، هذه النزعة المترفعة فيه، يجد أنها تعاليًا لا يناسبه، رغم أنه يدرك جيدًا أنه لا يتعمدها أو يفتعلها، فقد نشأ في بيت أرستقراطي بالفعل. رغم كل ما يعانيه «علي» من التعاسة والحزن، إلا أنه يرى في الصداقة نوعًا من القدسية، تفرض على الصديق واجبات نحو صديقه، و«رامي» رغم تربيته الجيدة إلا أنه لم يتعلم يومًا حقوق الأصدقاء، ولذا لم يعتبره «علي» يومًا صديقًا حقيقيًّا. كم تمنى لو يجعله كذلك! لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن «رامي» ليس الصديق الذي تجده وقت الشدائد، ولا هو الصديق الذي يمنح نفسه لصاحبه بلا مقابل، إلا الوفاء للصداقة. وإن كان للحق رجلًا طيبًا ورفيقًا وديعًا، و«علي» يحبه بالفعل إلا أنه لا يرقى إلى مرتبة الصديق الوفي بالنسبة إليه.

أغلق «علي» الباب أخيرًا بعد مغادرة «رامي»، وأضاء المصابيح رغم صرخات «خالد» المتألمة اعتراضًا على إضاءةٍ لم يعتَدها في الشهور الأخيرة، فقد كان يكتفي بإضاءة خافتة من أباجورة صغيرة، ممضيًا ليله ونهاره في ظلام شبه دامس.. لم يحتمل «علي» رؤية صديقه الأقرب وهو مُلقى على الأرض بهذا الشكل، فحاول أن يجلسه على أقرب كُرسي، قبل أن يُغير رأيه، ويجره جرًّا للحمام، متجاهلًا اعتراضاته ومزاح السكارى الذي أخذ يُطلقه.. أجلسه أخيرًا في حوض الاستحمام بملابسه.. ابتسم «خالد» بمكر وقال:

- إيه يا عِلوّة؟ أنت مش متجوز؟ هتطاوعني أخيرًا؟

اكتفى «علي» بابتسامة باهتة مجاراة لصديقه، ثم قال من بين أسنانه وهو يساعده على خلع ملابسه:

– لازم تستحمي قبل أي كلام، أنا مش عارف أنت طايق نفْسَك كدة إزاي!

وقبل أن يكمل خلع ملابسه، كان «علي» قد هم بفتح «الدُش» فوق رأسه بالفعل.. وبينما يستكمل حُطام صديقه خلع ملابسه، تراجع «علي» تجاه باب الحمّام، والتفت إلى الجهة الأخرى مُداريًا دمعة كادت أن تنفلت من بين جفنيه. عاش حياته مُعتقدًا أن الألم قَدَر، وأن كل إنسان لا بد أن ينال منه نصيبه، إلا أنه لم يحتمله على مَن يحب أبدًا، إنها مأساة «عليّ» الدائمة، يحتمل كل الآلام ويراها قدرًا إلهيًّا لا بد أن يأخذ بحظه منه، لكنه لا يستطيع احتمال تعرض أحبابه إلى هذا القدر الحتمي، يود لو يفتدي كل من يسكنون قلبه، يتمنى لو يتجرع آلامهم بالوكالة عنهم، لو أنه يستطيع أن يعقد صفقة مع القدر لكان دفع فاتورة أحبابه من دمه وبنفسٍ راضية. ينظر إلى صديقه المتهالك والحسرة تأكله حزنًا عليه، لا يدري كيف وصل به الأمر إلى هذا الحال.. سيفهم، لاحقًا بالتأكيد.. سيفهم ما يجري، إلا أن عقله ما زال في طور استيعاب ما بدا عليه صديقه من انهيار كامل.. لا بد أن يفيق قليلًا، وأن يُعيده إلى صورة تقارب صورته المُعتادة في خياله.. وليس هذا المسخ الراقد في حوض الاستحمام.

8

كان آخر ما ينقصه عند عودته إلى المنزل أن يجد أمه تنتظره وهي شبه نائمة على الكرسي الموضوع بجوار باب الشقة.. أغلق الباب ببطء، مخافة إصدار أي صوت، إلا أنها بسمعها الحاد المُعتاد استيقظت مع خطواته الأولى، ورمته بنظرة تأنيب طالما أرّقته في سنين صباه وشبابه الأولى، وهتفت بنبرة تحاول كبح غضبها فيها قدر الإمكان:

- بقى بردو يصح تقلقني عليك كده! وأتصل بيك ما تردش عليّ وبعدها تقفل تليفونك! راجع لي الساعة 2 يا علي! ينفع بردو!

حاول ألا ينجر إلى طريق الشجار معها، فآخر ما يرغب به في هذه الليلة العصيبة أن يتشاجر مع أمه، جلس على الكرسي المجاور لها وحاول التبسُّم رغم تجهم ملامحها، تأملها في إضاءة الشقة الخافتة، بوجهها المائل للاستطالة، والعينين الكحيلتين دون أن تكتحل، وفمها الواسع قليلًا في غير قُبح، تُزيينه من الأسفل ذقن صغيرة مميزة تُعطي وجهها طابعًا جميلًا، وجهًا ما زال مُحتفظًا ببقايا حُسن ولّى، وجمال أتلفه المرض وتحمُّل المسؤولية، والضغط.. الضغط الذي تمارسه على ذاتها وعلى كل المُقرّبين منها.

أخذ يسترضيها بكل ما يملك من طاقة تساعده على أن يبدو لطيفًا قدر الاستطاعة، شرح لها أنه كان في زيارة صديق علم أنه يمرّ بمرض مفاجئ. كذب عليها كما اعتاد أن يفعل منذ طفولته ليتجنب غضبها، كان يعرف ضعفها الفطري تجاه سيرة المرض وأهله، فلانت ملامحها قليلًا، ثم اكتسب صوتها حزمًا أكثر لُطفًا وسألته:

- مش هنروح بقى عشان نصالح مراتك! يعني أنت عاجبك حالك كده! جوزتك أنا عشان ترجع تقعد لي في أوضتك تاني يعني؟!

لمحتْ في وجه ابنها الغضب المكتوم، وهو يهز يده اليُمنى ويهز ساقه، هذه الحركة التي تلازمه عند الغضب منذ طفولته، ولم تتغير رغم مرور السنين.. غمغم قائلًا:

- إن شاء الله.

في لهجة تخلو من جديّة النيّة، يريد المرور من الموقف كعادته دون اتخاذ موقف حاسم، فعادت تسأل مرة أخرى لكن في اتجاه آخر:

- طيب ده أنت حتى ما قولت لي إيه سبب الخناقة اللي خليتها عايزة تروح عند أمها أصلًا! إيه اللي حصل لكل ده؟

قال «علي» بنبرة يدافع بها عن النفس، كمن يدفع عن نفسه تهمة تقصير لم يتهمه بها أحد بعد:

- عشان عايزانا نسافر دبي نشتغل هناك يا ماما.. جالها عرض شغل بالنسبة لها كويس في دُبي، فشايفه إنه الطبيعي والمنطقي جدًّا إني أقولها: هيييييه يلا بينا نسافر. وأولع أنا بقى بشُغلي بحياتي بكل حاجة أنا عاملها هنا.. يلا نسافر، يبقى يلا نسافر.. دي فاكراني عشان بعاملها كويس وبراعي ربنا فيها إني خلاص هعمل اللي هيتقال لي ومش هقول غير حاضر ونعم.. بس أنا خلاص زهقت وقرفت من كل حاجة.

أحست الأم بقلق حقيقي من نبرة «علي» في الحديث، خاصة كلمة «زهقت»، هذه الكلمة بالذات تُصيب قلبها بالانقباض، آخر مرة سمعتها من رجل بمثل هذه النبرة الغاضبة كانت من أبيه، قبل أن يغادر حياتهم إلى الأبد بعدها بيومين.. فأخذت تحاول استيعاب غضبه، رغم أن هذا عكس طبيعتها الصدامية المائلة لإلقاء الأوامر، ورغم عدم اقتناعها الداخلي بأحقيته في الغضب، في داخلها كانت ترى أن «سما» سيطرت على علاقتها بابنها لأنها الأقوى والأجدر بقيادة هذه العلاقة، انتقل زمامه من يديها إلى يد زوجته، ومع ذلك لم يزعجها هذا كثيرًا، بل كانت ترى فيه الخير، وأنه المنطق الوحيد المقبول، فلا بد أن يكون هناك من يقوده في النهاية، فهي لم تر في ابنها رجلًا كفئًا لقيادة حياته، رغم أنها لم تصارحه أو تصارح نفسها بصوت عالٍ بهذه الحقيقة، إلا أن هناك أشياء لا نحتاج إلى قولها، أحيانًا تتكفل الأفعال والمواقف بكل شيء.

كان يود ألا يجد نفسه في هذه المواجهة مع أمه، ولم يكن يتمنى أن يفصح لأمه بما يشقيه، لكن سيلًا من النار كان يسبح في دمه، وكأنها بسؤالها حرّرت البركان من أسره، وأطلقت النهر لطوفانه، فأكمل حديثه بنبرة أكثر غضبًا:

- وفي الآخر تقول لي إن أنا اللي أناني! أنا اللي أناني بعد كل اللي فات؟! وعايشة معايا ليه وهي شايفة إني راجل أناني؟ غيرت شغلي، وحياتي، وسكني، عشان تبقى مرتاحة وما حسش إنها عايشة معايا ونفسها في حاجة مش قادرة تحققها، وتقولي إني أناني.. عايزة تخليني مراية عيوبها.. عيوبها اللي قبلتها.. بس هي مش مستعدة تقبل أي حاجة غير اللي على مزاجها بالظبط، بذمتك دي عيشة يا ماما! ده يبقى جواز!

حاولتْ تخفيف حدة الموقف، فقالت بمزاح:

- كل الرجالة زي القطط ناكرين جميل.

ثم قامتْ وهي تُمسِك بركبتيها وتتأوه من ألم الروماتيزم، وزنها الثقيل نسبيًّا يَزيد الوضع سوءًا.. أخبرته أنها ستدخل لتنام كي تستيقظ مُبكرًا للحاق بعملها، وأنه لا بد أن ينام أيضًا، ثم توقفت فجأة وكأنها فاتها شيء مهم، أو نسيت مهمتها الأساسية، فالتفتت إليه ولامته بحدَّة مفاجئة على تأخره بالخارج، مما اضطرها إلى انتظاره جالسة حتى آلمتها ركبتيها. ثم واصلت سيرها وعلى وجهها ابتسامة خفية، كأنها والحمد لله قامت بواجبها ولم تقصّر في مهمتها، ولم يُنسها غضبه حقها في اللوم عليه، ومحاسبته على ألم ركبتيها. كان هذا تحديدًا هو أكثر ما يغيظه، تلك الطريقة المبطنة بكثير من الابتزاز:

أن يُلام على تضحيات لم يطلبها، أن يُعاقَب على مظاهر لُطف ربما تبدو جميلة لو قُدِّمت دون إشعاره بمدى الأذى الذي لحق بمُقدمها. ثم زادت الأمر سوءًا عندما قالت بلهجة آمرة خالية من المزاح قبل أن تصل إلى باب غرفتها:

- وما تنامش من غير ما تغسل رجليك وسنانك.

كتم ضحكاته وغضبه وإحساسه بعبثية الموقف.. هذه أمه، لن تتغير مهما حدث.. وهو يحبها رغم كل شيء.. وهل يملك الإنسان إلا أن يحب أمه بكل ما فيها!

9

تابع بنظراته «سعيد» وهو ينهر الساعي الذي استلم الطعام الذي طلبه مالك الشركة «سند باشا»، وأخذه منه وحمله بحنان متجهًا إلى مكتبه، ليقدمه إليه بنَفسه مع وصلة نفاق يمكن لـ «علي» أن يتخيلها دون أن يشهدها بنفسه.. اعتاد العاملون في المكان كلهم –على اختلاف درجاتهم الوظيفية– أن «سعيد» يبالغ في الاعتناء به كأنه زوجته.

حاول أن يركز في الـ «سكربت» المطلوب منه إنجازه لأحد الإعلانات التلفزيونية، ضمن حملة إعلامية تتولاها الشركة في القريب العاجل لأحد مستحضرات التجميل.. توسعت الشركة في الفترة الأخيرة، ولم تعد مُختصة بالتسويق عبر الإنترنت فقط، بل دخلت مجال التليفزيون بقوة، وكان لعلاقات عائلة مالكها السبب الأهم، وبعدها تأتي المواهب التي أجاد اختيارها ووظفها، فكان لها أبلغ الأثر في نجاح الشركة وتمدد نشاطها، وعلى رأس هذه المواهب يأتي «علي» بالطبع... لكن العلاقات لها دومًا الدور الأهم، فهي مَن تُمهد الطريق، وبعدها يأتي كل شيء في هذه اللعبة.

كان ذهنه مُشتتًا بشدة، مما جعله عاجزًا عن صياغة التصوُّر الذي عرضه على «سند» كونه فكرة عامة في الاجتماع الذي عقدوه فور وصولهم في الصباح.. زاد من توتُّره غياب «رامي» عن العمل اليوم، لم يعلم أنه في إجازة ليومين إلا بعد أن استفسر عن ذلك، عندما لاحظ عدم ظهوره بصخبه المحبب المُعتاد في بداية اليوم.. تابعه على «فيسبوك»، منتظرًا استيقاظه ليتصل به، يريد أن يناقش معه ما رآه بصُحبته أمس، رغم أنه هرب من الموقف وتركه في شقة «خالد» منفردًا، إلا أنه وبرغم هذا يريد صوتًا آخر في ذهنه يسترشد به ويؤنس أفكاره.

وبينما هو غارق في أفكاره لمح يدًا أنثوية تضع أمامه فنجانًا من القهوة، فرفع رأسه ليجد «منار» زميلته في العمل تبتسم وهي تقول:

– شكلك ما نمتش كويس إمبارح.. فطلبت لك قهوة معايا.

شكرها، فردت عليه بابتسامة عريضة وانصرفتْ.. تأمل جسدها المتناسق في هذا الفستان الضيق قليلًا، يحب خُصلات شعرها بُنية اللون، ويحب خجلها الفطري الذي لا يخلو من جرأة في التعامل مع الرجال بشكل عام، هذه التركيبة البسيطة تأسره، طريقتها تُشعِره أحيانًا أنه يرغب في الجلوس إليها والحكي كأنه يجالس صديقًا رجلًا.. لها ملامح جميلة متناسقة، تنبئ عن عِرق تُركي لا بد منه في نسبها.. حَادَثَه شَيْطَانُهُ أن يقترب منها أكثر من مرة، هو يعجبها، هو يعلم ذلك، وهي تعلم ذلك، أحيانًا كانا يشعران بشرارة الإعجاب بينهما، تلك التي لا يشعر بها لحظة حدوثها سواهما، لكنه كان يكبح تلك النزوة ويخجل من نفسه، ويعتذر من «سما» في قلبه عن تلك الأفكار التي لم تتجاوز حيز عقله. «منار» أيضًا كانت مُلتزمة بما يمكن أن تفعله فتاة مُهذبة تجاه رجل متزوج يعجبها: تحاول أن تتجنب الاقتراب منه بكل الأشكال.. كانت لفتة فنجان القهوة هذه نادرة الحدوث، لكنها حدثتْ على كل حال،

ولم يكن «علي» مستعدًا للمُضي قُدمًا تجاهها بأي شكل، لم يكن مُستعدًا للتورط في خيانة «سما»، حتى لو توترتْ علاقتهما، حتى لو كان يفكر جديًّا في الانفصال عنها وإنهاء كل شيء.

وبينما يحاول «علي» الانهماك في العمل، أو التظاهر بهذا دون تركيز حقيقي منه، كانت «سما» تقضي صباحًا سيئًا هي الأخرى في عملها، بعد أن سيطر التوتر عليها بشكل ملحوظ، مما جعل زميلتها وصديقتها «مريم» تنتبه إلى سوء حالها، وزاد الأمر سوءًا عندما سكبت كوب النسكافيه بالكامل على الأرض، قبل أن يقع لينكسر مُحدثًا دويًّا كبيرًا.. جاء أحد العُمال في المكتب لينظف الفوضى التي خلفها هذا الحادث البسيط، قبل أن يقترب زميلهما «هاني»، أو «دنجوان المكتب» –كما يُطلَق عليه سرًّا لوسامته الشديدة– كان قد تم تعيينه قبل عدة أشهر، ونجح بجاذبيته في توطيد علاقته بمعظم العاملين هنا رجالًا ونساء، إلا «سما»، وحدها تقريبًا أحستْ في نظراته بشيء لم ترتح له أبدًا.

وبينما العامل منهمك في تنظيف الأرضية الخشبية، إذ اقترب منها «هاني» ممسكًا بكوب ورقي يتصاعد منه الدُخان وقال وهو يميل نحوها نسبيًّا:

- يااااه! ده أنتِ شكلك مقفلة قوي النهاردة! ما تفتحي الشيش يا «سما» وتخلي شوية هوا يهلوا علينا كده.

رمته بابتسامة صفراء، وهي ترفع يدها اليُسرى التي تحمل دبلة زواجها، وداعبتها كأنها تُعدِل من وضعها في إصبعها، ثم قالت من بين أسنانها، بصوت حاولتْ قدر الإمكان أن يكون خفيضًا:

- أنا عارفة إن شكلي يبان كيوت.. خِلقة ربنا بقى مش هعترض، بس أنا ع الحقيقة مش كده خالص يا «هاني».. ابعِد عن طريقي بدل ما والله أشتكيك لأكبر رأس في المخروبة دي واقلب عليك الدُنيا.

فَزَع «هاني» من جدية نبرتها الهادئة، فحاول التماسك مُبتسمًا، وقبل أن ينصرف مُتجهمًا، غمغم بصوت مكتوم:

- لا وعلى إيه!

لم تكن تعلم أن صديقتها «مريم» المُفعمة بحب التنصت استمعت جيدًا إلى المحادثة السريعة التي جرت، فبادرتها بصوت خفيض قائلة:

- جامد وحاسم يا سمسم.

قبل أن تتابعه بنظرها وهو يدخل أحد المكاتب في آخر الرواق المواجه لمكتبهما المُشترك، ثم قالت بصوت حرصتْ على أن يكون منخفضًا:

- بس الواد مُز ما تنكريش.. دمه واقف آه بس قمر ابن الإيه.

جذبتْ «سما» كومة من الأوراق وبدأت تطالعها وهي تهمس إلى صديقتها:

- قمر ولا زفت لنفسه.. ده عيل قليل الأدب وشايف نفسه.

لتؤكد صديقتها على كلامها بهمهمة، عائدة إلى مكتبها المجاور لها، ثم عادت لتسألها بعد عدة دقائق:

- مش هتصلحي الأمور مع جوزك بقى؟ كفاية كده يا «سما»، ما ينفعش ست تبعد عن جوزها كل ده.. هيتعود! هيتعود على الحياة من غيرك، الرجالة بيتعودوا بسرعة يا حبيبتي، بيتعود على وجود الست فما يقدرش يعيش من غيرها، بس كمان لو اتعود على غيابها ممكن يفكر إنه يقدر يعيش من غيرها عادي جدًّا.

لم ترد «سما» كعادتها عندما لا يعجبها ما تسمعه، فطرقعت «مريم» بأصابعها في الهواء لتجذب انتباهها. التفتت «سما» بضيق تجاهها مستفهمة، فسألتها «مريم» بنبرة حذرة:

- هو ما تكلمش تاني؟

أجابتها نافية بهزة من رأسها، فقالت «مريم» مقترحة عليها:

- طيب ما تكلميه أنتِ؟ يعني حتى لو هتعملي نفسك بتطمني عليه بس مش أكتر، لقيتيه بيقفل في الكلام، اقفلي معاه وخلاص.. وأهو تبقي عملتِ حركة لطيفة ع الأقل.

تنهدت «سما» ونظرتْ إلى صديقتها للحظات.. ثم ابتسمت وهي تخبرها أنها لن تتصل به، لأنه وببساطة لم يتصل بها ثانية رغم مرور عدة أيام على تركها المنزل، وكل ما يفعله أنه يطمئن من والدتها عليها كأنه يؤدي واجبًا لا أكثر، ولو أراد أن يصل إليها لما اكتفى باتصال واحد أداه كمن يؤدي واجبًا ثقيلًا مفروضًا عليه، الرجال يصلون إلى ما يريدون عندما يريدون حقًّا.. هكذا ختمتِ النقاش، إلا أن «مريم» لم تكن مستعدة للاستسلام بسهولة، فردت عليها بحماس هذه المرة:

- يا حبيبتي الرجالة ما بتتعاملش كده.. دول مهما كبروا أطفال، يتلاعبوا آه.. يتحرموا شوية من اللعبة اللي بيحبوها عشان يسمعوا الكلام ماشي.. بس ما ينفعش نديهم ضهرنا خالص كده.. ما هو العيال بتتقمص يا حبيبتي، وقمصة الرجالة وحشة.. ما تخربيش بيتك بإيديكِ.

ضحكت «سما» من لهجة صديقتها في نُصحها، وبادرتها مهاجمة بمُزاح كعادتها:

- بذمتك ده كلام واحدة شغالة في شركة مالتي ناشيونال محترمة؟ ما لك قلبتِ ليه على الستات اللي بيتقابلوا في حمامات التلات كده!

ولم تدع لصديقتها فُرصة للرد وأكملت:

- أنا ما ليش في جو تدليع الرجالة.. أنا عمري ما قصّرت معاه في حاجة، فيها إيه لما يعمل لي اللي أنا عاوزاه واللي فيه مصلحتنا إحنا الاتنين؟ يعني يا أمشي على مزاجه يا أبقى بخرب بيتي؟

وتذكرت حديث أمها لها منذ عدة أيام، ومع هذه الذكرى اندفعت ذكرى الأب الراحل من مكان ما في الذاكرة، فجأة بلا مُقدمات واضحة كالعادة، فحاولتْ طردها بشدة وهي تضغط بحزم على أزرار الكومبيوتر، باحثة عن شيء ما لم تكن تعلم ما هو بالضبط.

تمارست «سما في تلك اللحظة ما اعتادت عليه طوال حياتها تقريبًا، تظاهرتْ باللا مبالاة، بينما هي أشد المُهتمين من داخلها، لكنها تخاف أن تُحاسَب على هذا الاهتمام باعتباره ضعفًا.

ربما كان هذا ما يُشكل مشكلة زواجها منذ بدايته، لم تكن مستعدة للتعايش مع لحظات ضعفها هذه، لا تتقبل نفسها ضعيفة، بل مُجرد تخيُّل الفكرة يُفزعها ويُشعِرها بالعُري النفسي التام، وأنها ستصير عُرضة لكل ألم ممكن إن هي تهاونت أو تسامحت أكثر من اللازم.. وقد سمحتْ طبيعة زوجها اللينة، المستعدة لتقديم التنازلات بشكل شبه دائم، على الحفاظ على توازن العلاقة مائلًا غالبًا إلى كفتها فيما يخص هذه النُقطة.

كانت حزينة وغاضبة، وضاعف الأمرين عدم قدرتها على إظهار أيهما، أو حتى الاعتراف الجاد بالأمر أمام نفسها.. يبدو الشعور المؤلم مُضاعفًا عندما لا نقدر على الاعتراف به لأنفسنا على الأقل.

وفي الجهة الأخرى من الصورة، كان «علي» منهمكًا في مكالمته مع «رامي» الذي استيقظ أخيرًا، فحكى له مع جرى أمس مع «خالد»، وأنه لم يفهم منه الكثير وهو تحت تأثير هذه الحالة المتقدمة من الغياب عن الوعي.. كل ما فهمه منه بشكل أساسي أنه خسر كل شيء.. انفصل عن الفتاة التي كان يحبها؛ إذ كاد أن يتقدم لخطبتها، قبل أن يخسر كل أمواله تقريبًا.. لم يفهم كيف حدث هذا ولا ذاك، فحالته المُزرية لم تسمح له بالمزيد من الحكي المنتظم. وأكد على «رامي» أنه لن يترك صاحبه في محنته وحيدًا وأنه سيتواصل معه، ولن يبتعد عنه مرةً أخرى مهما كانت مشاغله، كما أخبره أنه قد اتفق مع «خالد» أن يتقابلا اليوم بعد أن ينتهي من عمله، ليفهم بدقة ما جرى.

كان «علي» منشغلًا للدرجة القصوى بـ «خالد» وموقفه وأزمته، يشعر بطريقة ما أنه مسؤول عمّا حدث له، رغم أنه ليس له أي علاقة من قريب أو بعيد بما أصاب صديقه، لكن ابتعاده وغيابه عنه في الفترة الماضية على مدار أشهر كان يشعره أنه مقصر في حقه، وأنه لو كان بجواره لربما كان من الممكن تجنب هذه المآسي، لكن في حقيقة الأمر، ورغم نبل «علي» وصدق مشاعره تجاه صاحبه، إلا أن انشغاله كان نوعًا من الهروب من واقعه هو نفسه، كأنه وجد فرصة سانحة ليشغل بها نفسه بعيدًا عن دائرته الخاصة، ليتخلص من التفكير في نفسه وما حدث مع زوجته، ولذلك أعطى كل عقله لـ «خالد» ومشاكله، أما عن «سما»، فلم يشغل باله بقصته معها في الوقت الراهن، بل إن ذهنه وجد مَهربًا نموذجيًّا للانشغال بكل طاقته بما يجري مع صديقه. ربما تبدو أزمته مع «سما» أزمة بسيطة كأي مشكلة قد تحدث بين زوجين متحابين، لكنه في داخله كان يعلم أن خلاف هذه المرة ليس خلافًا عابرًا.. هناك شيء ما قد انكسر بداخله، شيء حاول منذ سنوات أن يحافظ عليه سليمًا، ولم يقدر.. لم يعد يرى نَفْسه كافيًا في عينيها.

10

كانت شاشة التلفزيون في المقهى تعرض أغنية «يانا يانا».. أخذ «علي» يتأمل الشحرورة «صباح» وهي تتمايل بخفة وتحاصر «رشدي أباظة» من كل اتجاه وهي تردد:

- علشانه أموت أنا...

وفكَّر أنه لا يتذكر امرأة واحدة صادفها في سنين حياته التي تجاوزت الثلاثين يمكنه أن يتخيلها تُغني له بهذا الدلال، ولو على سبيل التمثيل، حتى زوجته لم تتدلل عليه يومًا بعُشر هذا القدر، بل أحس دومًا أنها تتعمد إبداء المزيد من القوة في المواضع التي يمكن أن تُظهِر غيرها فيه الضعف، فإن أي امرأة أخرى حين تختلف مع زوجها قد تصطنع الضعف أو الدلال على سبيل استخدامه سلاحًا ضده في الشجار مثلًا، أما «سما» فكانت تبادله الغضب بما هو أكثر عُنفًا منه، وهو بالأساس قليل الغضب، حتى اعتاد أن يكتم انفعالاته دومًا في مواجهتها تجنبًا لمشاكل أكبر.

رغم اعتياده الذي نعرفه على الرثاء كثيرًا لنَفْسه، إلا أنه لم يكن يخادع ذاته هذه المرة؛ إذ يدرك الآن تمامًا أنه لم يُحَب أبدًا بالقدر الكافي على مدار حياته. لم تحبه المرأة الوحيدة التي منحها قلبه، أو على الأقل لم تبادله حبه بنفس المقدار، حتى أمه لم يشفع له كونه الولد الوحيد لها كي تدلِّلُهُ كما تفعل الأمهات عادةً مع الولد الوحيد، بل زادتْ صرامتها معه، خوفًا عليه من أن يفسد كما يفسد أقرانه ممن يمرون بذات الظروف.. أحبته على طريقتها الخاصة، اعتنت به، وبصحته، وطعامه، ونومه، ودراسته، لم تكن تُقدم لأخته نصف ما تقدمه له من اهتمام مَشوب دومًا بالصرامة والجِدية.. أحبته بحرص حتى لا يُفسده فرط الحب، دون أن تدرك أن جوعه لإحساس استحقاق الحب هو ما سيفسد عليه حياته فيما بعد.

ثم جاءت «سما» لتكمل مسيرة أمه وطريقتها ذاتها، كأنهما كانتا على اتفاق معًا! فهي في الحقيقة تحبه وليس كما يصور له خياله الحزين، لكنها تحت وطأة مخاوفها من تكرار نموذج والدها كانت تحرص كل الحرص على عدم إظهار ما في قلبها، فكانت تعطيه الحب كأنها تعلق محلولًا لمريض، قطرة بقطرة، وترى أنها لو أسرفت في العطاء فستصبح حالة مريضها خطرة، فالحب لديها مرض يجب أن يتم التعامل معه بحرص شديد، وأن يكون كل شيء فيه بمقدار.

التفت «علي» بعيدًا عن تلفاز المقهى وأغانيه التي أثارت شجونه، محاولًا طرد الهواجس من ذهنه، تلك الهواجس التي اعتاد أن تؤرقه باجترار الأفكار، ففي كل مرة وبمجرد أن يُمسك خيط فكرة، يبدأ فورًا في تضفير الهواجس مع بعضها، ليستيقظ داخله ما بذل مجهودًا لإخماده منذ سنين. ربما لهذا أجاد الكتابة؟ أرهقته أسئلته، فتوجه بعينيه صوب «خالد» الجالس على يساره يحتسي الشاي وعلى ملامحه علامات من اللامبالاة لا تناسب الموقف.. نقر «عليّ» بأصابعه على الطاولة لينبه «خالد» الغارق في أفكاره، وقال له بضيق:

- ما أنا مش جاي أقعد معاك تحت بيتك، عشان تشرب شاي وتفضل متنح كدة.. ما تفهمني يا «خالد» فيه إيه بيحصل؟ هترجاك عشان تحكي يعني!

ثم أكمل بضيق وهو ينظر إلى شاشة التلفاز مُجددًا:

- ما تخلص يا «خالد»، يا عم ما تقرفنيش بقى، كفاية «عم رشدي» الزفت اللي عمّال يغيظ في أهلي هو والشحرورة من أول ما الغنوة بدأت!

ابتسم «خالد» رغمًا عنه بجانب فمه كعادته.. كانت له ملامح صعيدية وجسد متناسق متوسط الطول، وجهه منحوت كأنه ورث ملامحه رأسًا من أحد أجداده القابعين في المتحف المصري.. جينات أمه الريفية بيضاء البشرة لم تصنع شيئًا أمام جينات الأب الصعيدي، فجاء الابن صعيدي الملامح كأنه نموذج صُنع لتوضيح ملامح أهل الجنوب، ملامح قوية لم تنجح اللحية الثقيلة ولا الهالات السوداء في مداراتها.

تأمله «علي» بقدر كبير من العطف وقد جلس مرتديًا هذا «الترينج» المنزلي غير المهندم في كل موضع تقريبًا.. منذ التقاه أول مرة، وهو يشعر نحوه بشيء من المسؤولية وواجب الرعاية، دون أن يطلب منه ذلك، بل إنه الشخص الوحيد في حياته الذي يتكفل هو برعايته نوعًا ما، على عكس علاقته بمعظم المُقربين له، فقد كان غالبًا الطرف المُطالب بتلقي الرعاية، المصحوبة بقبول الطاعة طبعًا.

نفخ بضيق لعلّ ذلك يحثه على الكلام.. فخرج صوت «خالد» مُحشرجًا:

- مش فكرة إني مش عاوز أحكي لك، أنا بس مش عارف أحكي إيه يا «علي»!

ثم بدا كأنه يستجمع شجاعته وأخيرًا قال- كأنما يتخلص من حمل ثقيل دُفعة واحدة:

- الموضوع بدأ من 3 شهور ونُص تقريبًا.. صحيت في يوم لقيت «سالي» عاملة لي بلوك على كل حاجة، تليفوناتها مقفولة.. وأتصل على صُحابها اللي ساكنين معاها في الشقة، يقولوا لي إنهم صحيوا ما لقوهاش في البيت، أخدت كل حاجة ومشت، وعربيتها مش موجودة تحت العمارة طبعًا..

أوقفه «علي» عن استكمال كلامه بسؤال خرج منه بلهجة أقرب للفزع:

- عربية! عربية إيه؟ من امتى «سالي» معاها عربية؟ أنت جبت لها عربية يا «خالد» من قبل حتى ما تخطبها!

رد عليه بخجل جعله يبدو كطفل يتلقى التأنيب من أبيه:

- أهو أنا عشان كده ما كنتش عاوز أحكي، ولا أعرَّف حد عني حاجة.. آه يا سيدي اتنيلت على عين اللي جابوني واشتريت لها عربية.. قعدت تلمح شهور، والتلميح اتحول لإلحاح ودلع، وبعدين بقى شكوى.. وإزاي إنها حاسة إنها أقل من معظم زمايلها وصحابها في مجال المزيكا اللي معاهم عربيات.. آه اشتريت لها عربية واللي حصل حصل، وأهي اختفت بكل حاجة..

ثم تناول كوب الماء الموضوع فوق الصينية وتناوله جُرعة واحدة، وصوت «صباح» يصدح قُرب نهاية أغنيتها مستفسرة باستغراب:

ذنبك إيه؟

ذنبك بحبك!

هو بعد الحب ذنب؟

كتم «علي» حيرته وأسئلته وغضبه، وقرر الصمت مُستمعًا إلى باقي الحكاية، التي واصل «خالد» قصّها على مسامعه:

- قعدت أسبوعين تايه، كل اللي بعمله إني بحاول أوصلها.. بطّلت أروح أي فرع من فروع الجيم، رميت كل حاجة على «عمر»، سافرت البحر الأحمر، سيوة، أي مكان ممكن تكون راحت تلعب مزيكا وتشتغل فيه، سألت عنها كل حد في الوسط بتاعها، ما فيش حد شافها ولا يعرف عنها حاجة.. رجعت القاهرة وأنا مش عارف المفروض أعمل إيه! ولا أروح فين! قعدت في البيت أسبوع ما بعملش حاجة غير الشُرب، ما كنش بيجي لي حد غير «عمر»، يقعد معايا شوية، نشرب، ويحاول يطلعني من المود.. بس ما كنتش بطلع، كأني بتشد جُوه دوّامة روحي مش عارفة تقاومها، الحزن تقّلني وخلاني أحس إن القومة من السرير دي عايزة طاقة معركة.. ده لو نمت أساسًا، كنت حاسس إني اتنصب عليّ في عمري كله..

تنهّد «علي»، هدأ غضبه ولم يبق داخله سوى تعاطف صادق مع صديقه، في لحظات كهذه يُحَس الحب ويبدو ظاهرًا للقلب كرؤية اكتمال البدر.. سأله بهدوء مُستحثًا إياه على المزيد من الحكي:

- طيب دي قصة «سالي».. هنرجع لها بعدين.. إمبارح وأنت بتخطرف قعدت تقول لي إن الفلوس وكل حاجة ضاعت.. إزاي بقى وليه؟

ركز «خالد» بصره على نُقطة وهمية أمامه مباشرة، ثم أطرق برأسه إلى الأسفل وقال كمَن يشعر بالخزي مما سيرويه:

- بعد كام أسبوع من الوقعة دي، قلت يمكن نزول الشغل يفوّقني.. نزلت ورحت فرع أكتوبر، دخلت «الجيم» لقيت واحد ما عرفوش قاعد في مكتب الإدارة، وبيقول لي إنه من صُحاب المكان الجُداد.. طبعًا اتخانقت وزعقت وكسّرت حاجات في المكتب، بس ما طلعتش بأي حاجة.. أتصل بـ «عمر» تليفونه مقفول.. اللي كان قاعد اتصل بشريكه، اللي جه ومعاه عقود ماضيها لهم «عمر» ببيع مشروع الجيم بكل فروعه.. بناء على عقد بيع أنا مضيته له قبل ما يبيع بيومين، عقد بينص إنه اشترى نصيبي في المشروع بقيمة 3 مليون جنيه، وإنه بقى المالك الوحيد.. وأنا بقيت في الشارع.

قال «خالد» ذلك وهو يغالب دمعة كادت أن تخونه وتنزلق من عينيه، ثم أطرق إلى الأرض في صمتٍ مطبق، كأنه يود الاختفاء خجلًا.

11

قبل ولوج الباب، أخرج هاتفه الذي لم يتوقف عن الرنين منذ ربع ساعة، وضغط بعصبية على زر الرد، ثم قال بنبرة حاول أن تخرج هادئة قدر استطاعته:

- أيوه يا ماما!

وقبل أن يُكمل كلامه، جاءه صوت صُراخها من الجهة الأخرى تلومه على تأخره وعدم رده على الهاتف مما أقلقها، وجعلها غير قادرة على تناول الغداء حتى الآن، رغم عودتها مُرهقة من عملها.. نظر «علي» إلى الأعلى كأنه يستجدي رحمة سماوية تمكنه من عدم الصُراخ في وجهها، لم يكره في حياته شيئًا مثل هذا اللوم الذي تصبه فوق رأسه على التوافه قبل ما يستحق.. أخبرها بسرعة أنه سيعود خلال بضع ساعات وأنه في مهمة تابعة للعمل، ثم أغلق الخط سريعًا قبل أن تواصل إلحاحها الذي يعرفه جيدًا.. نظر تجاه «خالد» الذي جعلته الملابس المُهندمة النظيفة التي لبسها أقرب إلى الآدمية، وقال له بحزم:

- زي ما اتفقنا، لو لقيناه جوه أنا اللي هتكلم.. لو لقيت إن فيه حاجة تستحق تتقال ابقى قولها بس ما تتسرعش.

هز رأسه موافقًا على كلام «علي» في تسليم.. رغم ميله الفطري إلى تجنُّب المشاكل، ورغبته الدائمة في أن يعيش حياة هادئة وكفى، إلا أنه لم يستطع أن يترك صديقه على هذه الحال دون أن يفعل شيئًا، فهو يستطيع أن يكون سلبيًّا تجاه أمله الشخصي ومشاكله في كثير من الأحيان، إلا أنه لا يقدر على فعل نفس الشيء تجاه مَن يحب، كان يحركه الإحساس بالواجب تجاه الآخرين، قبل أي شيء آخر.

دفع باب البار المتواضع الذي يقع بأحد الشوارع الجانبية لوسط المدينة، لم يتغير المكان كثيرًا عن آخر مرة دخله قبل عدة أشهر، صحيح أنه لا يشرب الخمور ولا حتى يدخن السجائر، إلا أن بعضًا من معارفه لا يجلسون إلا في مثل هذه الأماكن التي لم يرتح في ارتيادها أبدًا، رغم تجاربه السابقة بالجلوس هنا تحديدًا منذ عدة سنوات مضت، خلال فترة انغماسه في عالم الكتابة الصحفية.

كانت الوقت لم يزل مبكرًا، فبدا المكان شبه خالٍ، فرواد المكان يتوافدون عادة عندما يعلن الليل عن نفسه بوضوح، عدد قليل من الأشخاص يجلسون متناثرين على ثلاث طاولات في إضاءة صفراء باهتة تبدو أقرب إلى إضاءة طُرقات المستشفيات الحكومية.. والنادل العجوز يسير على مهل بين الزبائن.. تطلع «علي» في المكان سريعًا مُقلبًا بصره بين وجوه الجالسين، لم يجد مَن يبحث عنه، قبل أن يلتفت تجاه البار ويجد ضالته.. من سوى «حسام السعيد» يمتلك جرأة ارتداء مثل هذا الجاكيت ذي اللون الأحمر الفاقع؟!

اتجها إليه بعد أن تبادلا ابتسامة راحة، إلى جواره جلست فتاة قمحية البشرة لها شعر مُبعثر في كل اتجاه، خبط «علي» بخفة على كتفه، ليلتفت في فزع كأنه ينتظر خطرًا ما، قبل أن يتنهد في راحة ويحتضنه قائلًا بصوته الجَهوري المُعتاد:

- «علي» الموظف المحترم بتاعنا!

ثم سلّم على «خالد» بترحاب أقل، ربما لريبة تسرَّبت إلى نَفْسه نظرًا إلى طول لحيته وملامحه المُرهقة.. عرّفهم إلى الفتاة الجالسة إلى جواره بوصفها «الصديقة المُقرَّبة جدًّا»، فابتسم «علي» رغمًا عنه، لا يمكنه أن يتذكر كم فتاة قدّمها له تحت هذا الوصف نفسه خلال السنين الأخيرة.. انتحيا به جانبًا بعد أن حيا الفتاة بهزة من رأسيهما، وجلسا على ثلاثة مقاعد متقاربة قُرب نهاية البار من الجهة الأخرى.. اقترب «علي» منه وتأمل ملامحه ذات الطابع الغجري المميز، الشعر الأسود الفاحم والعيون الواسعة العميقة، وهمس له مُبتسمًا:

- نفسي أفهم هتعمل إيه لو وقعت مرة مع بنت قاصر واتورطت في مصيبة! ما تخف شوية وخاف على روحك.. إيه عاوز تروح لهم في قضية هتك عرض قاصر بدل السياسة المرة دي؟

انتفض «حسام» جراء سماع جملته الأخيرة، وبدا على ملامحه بعض الفزع الذي حاول مداراته في ضحكة عالية عصبية، قبل أن يرد عليه:

- ما بلاش السيرة الهِباب دي.. وبعدين يا سيدي ما تخافش، قبل ما أدخل في الغويط مع أي واحدة بتأكده إنها معدية الـ 18.

عاد «علي» إلى تأمله مرة أخرى مُتذكرًا المرة الأولى التي قابله فيها، كانت منذ زمن بعيد وهو طالب في الجامعة يتحسس أولى خطواته في عالم الكتابة، كثرت معارفه في هذا الوقت، كان حماسه يدفعه إلى التعرف إلى كل من له صلة بالكتابة، وكان فرحًا بانغماسه بين المثقفين والكتاب، وأخذه عالم «وسط البلد» مفتونًا بالحركة الفوارة في كل من حوله، وتشجيعهم له، كان يشعر حينها أنه يستطيع تغيير العالم، وأن الأبواب ستفتح له ذراعيها مرحبةً به بوصفه واحدًا من الكتاب الذي ينتظرهم مستقبل رائع. في هذه الفترة كان تعرفه إلى «حسام السعيد» حينما عرّفه إليه صديق مشترك سابقًا اسمه بـ«الصحفي المهم»، في زمن كان «حسام» صحافيًّا مهمًّا بالفعل، بل واحدًا من أهم مواهب جيله وأسرعها بزوغًا في عالم الصحافة العربية.. اشتهر بتحقيقاته الاستقصائية التي تكشف المستور، إلا أن هذا الكشف سرعان ما جلب عليه الخطر ممن لا يحبون أن يُكشف ما ليس مسموحًا بتداوله.. كانت البلد حينها في حالة سيولة، يسهل فيها أن يقول أي أحد أي شيء، إلا أن القبضة سرعان ما عادت أقوى، خاصةً فيما يخص تجاوز الحدود في عالم المعلومات وتداولها.. اعتقل قرابة عام، ووُجهت له عدة تُهم سقطت جميعًا مع المحاكمة الأخيرة، البعض يقولون إنه وشى ببعض العاملين داخل المجال الصحفي في أمور لم تكن معلومة للأجهزة في وقتها، وكانت المكافأة هي خروجه، مع أمر صارم بالسير بجوار الحائط، والأفضل ألا يسير مطلقًا ويكتفي بالجلوس في مكانه.. لم يكن في حاجة إلى تعليمات إضافية، خرج من هذه التجربة مُحطمًا تمامًا، مُجرد ظلال لمشروع إنسان كان من الممكن أن يكون مُهمًّا، لو لم يُكسَر تمامًا على هذا النحو.. لا أحد يعرف ما حدث له بدقة بالداخل، فقد رفض «حسام» البوح مُطلقًا بهذا، وتوقف عن العمل، واكتفى بالتواجد داخل مجتمع وسط المدينة مُستغلًّا سمعته اللامعة السابقة

في عالم الكتابة، والتي ما زالت ناجحة في اجتذاب الوافدات حديثًا لهذا العالم.. يبدو أن تجربة السجن جعلته يرى أن استغلال بعض الفتيات الصغيرات ليست جريمة كُبرى.. الألم قد يُشوِّه داخلك ونظرتك للعالم.

تأملهما «حسام» مُتفحصًا وسألهما:

- قولوا لي إيه اللي رماكم عليّ في أول الليل كده؟ أكيد مش جايين تسلموا عليّ عشان وحشتكم صح؟

كاد «خالد» أن يبادر بالرد، فأسكته «علي» بضغطه شديدة على ركبته، ونظر إليه نظرة جانبية لائمة، ثم وجه حديثه إلى «حسام»:

- ده تالت بار ندخل ندوَّر عليك فيه، تليفونك مقفول كالعادة.. عندك حق مش جايين نسلم، جايين لك في سؤال بسيط خالص.. «عمر السِمري» سكته إيه؟

أشعل «حسام» سيجارة ونظر إلى مُحدثه عبر سحابة من الدخان أطلقها من بين أسنانه، ثم أشار إلى «خالد» مُستفهمًا:

- أنتم مش مشاركين بعض في حوار صالات الجيم بتاعتكوا دي؟

أخبره «علي» باختصار بما جرى، فاصطنع تعبيرًا حزينًا على وجهه، ثم قال بحزم موجهًا حديثه إليهما:

- الله يعينكم، بس أنا ما ليش دعوة بيه.. ده كان مُجرد معرفة، حتى عُمرنا ما كنا صُحاب يعني.. وما فتكرش إني شوفته من يجي سنة.

رسم «علي» ابتسامة واسعة على وجهه، ومد يده داخل جيب بنطاله، وأخرج سيلوفانة حمراء صغيرة وضعها بُسرعة داخل الجاكيت الذي يرتديه «حسام»، وقال بلهجة تمثيلية أقرب إلى الفُكاهة:

- يا عم عارف إنك مش صاحبه، بس «خالد» أكد لي إنه أول مرة يقابله كان معاك.. وبعدين ده أنت عُمدة وسط البلد! كل مصيبة وكل دبة رجل بتبقى مسمّعة عندك قبل ما أي حد يعرفها، أكيد تعرف له طريق يا حُسّ!

مدّ يده داخل جيب الجاكيت، وتفحص راضيًا نصف قرش الحشيش الملفوف بعناية داخل سيلوفانته.. وارتسمتْ ابتسامة صادقة هذه المرة على وجهه، وقال لهما بلهجة فيها من الحسم ما يوحي بالصدق:

- طيب بعد الدَخلة الحلوة دي منكم، فأنا لازم آجي لكم دوغري.. اللي عرّفني على الواد الحرامي ده كان «أحمد الصمطي».. الواد اللي شغال ع الشيشة في قهوة «شحاتة».. هو ده اللي معاه مُفتاح سكته.. روحوا له، جايز يفيدكم بحاجة.

تبادل «علي» و«خالد» نظرات الرضا، وقاما مصافحَيْن «حسام» الذي ودعهما متمنيًا لهما التوفيق في العثور على هذا اللص.. لكن هذا الرضا المُؤقت لم يمنع «علي» من الإحساس بمرارة تعتمل في حلقه، وهو

يتأمله عائدًا إلى الجلوس بجوار الفتاة مرة أخرى.. يمكن لأقدار الحياة أن تصنع لكَ مستقبلًا وترسم لك طريقًا لم تكن تتخيله أبدًا.

12

رغم أن «حسام» فتح أمامهما بابًا للأمل، إلا أن شيئًا من الحزن كان مسيطرًا عليهما منذ لحظة خروجهما من البار، هيئة صديقهما القديم آلمتهما أشد الألم، رغم أن العلاقة بينهما وبينه لم تكن وطيدة، إلا أنهما يعلمان أن «حسام» كان في داخله إنسان نبيل، يغلب خيره شره، فكيف وصل إلى هذا القاع؟! فبرغم ما وصل إليه حال «خالد» في الفترة الأخيرة، وأنه كان مثل «حسام» تقريبًا غارقًا في السُكر والضياع، إلا أن ما حدث لـ «خالد» كان أشبه بوعكة عابرة، ضربة أفقدته توازنه لفترة، أما ما حدث لـ «حسام» فهو طريق الذهاب بلا عودة، وهذا ما أثقل على نفسيهما حين رؤيته، كانا يعرفان أنه تغير كثيرًا، بل ويعرفان مسبقًا ما رأته أعينهما واقعًا، لكن مهما كان ما نعرفه قاسيًا، فإن رؤيته بالعين شيء آخر، ربما أحكي لك عن طفل تعرض إلى الإيذاء والضرب الوحشي من رجل بالغ، فيحزنك ذلك، لكن رؤيتك لهذا الحادث بعينيك سيكون قطعًا لها وقع آخر! هذا ما حدث معهما، ولذلك خرجا من البار صامتين حزينين. فحاول «خالد» أن يفتح الحديث مع صديقه «علي»، لكنه بدلًا من أن يتحدث بما في نفسه من حزن على «حسام»، إذا به ينقل دفة الكلام إلى الجهة الأخرى متحدثًا عن الفتاة التي كانت تجلس معه. فتوجه إلى «علي» يسأله:

- بس إزاي بنت زي دي ما كملتش 20 سنة وقاعدة بتشرب في بار عادي كده! مش مفروض اللي يدخل يبقى فوق 21 تقريبًا؟

نظر إليه «علي» مبتسمًا رغم توتره، فقد كان باله مشغولًا هو الآخر بـ «حسام» وما آل إليه حاله، لكن اهتمامه الأكبر كان منصبًا على «خالد» وأزمته. كثيرًا ما شعر تجاه «خالد» بتلك المسؤولية، نظرًا لتلك السذاجة التي تغلف شخصيته، حتى بمحاولاته لتغطيتها بالتظاهر بالشراسة، والتعالي أحيانًا، إلا أنه في حقيقة الأمر لم يتخلص أبدًا من بساطة التفكير الريفي وعدم قدرته على الإلمام بعالم المدينة الواسعة بتفاصيله الحقيقية، رغم إقامته فيها منذ سنوات.. وللأسف أمثاله هم الضحايا المثاليون للاستغلال بكل أنواعه.

- عادي يا «خالد» بيدفعوا زيادة شوية لـ «الويتر».. كل حاجة بتتعمل بالفلوس، إيه اللي مخليك مستغرب أوي كدة، كأن كل حاجة ماشية تمام ودي أول حاجة تشوفها غلط!

هز «خالد» رأسه مؤمّنًا على حديث صديقه. مشيا سيرًا على الأقدام حتى «مقهى شحاتة» الذي أخبرهما «حسام» أنهما سيجدان الطريق إلى «عمر» من خلال عامل الشيشة بهذا المقهى.

جلسا على طاولة بعيدة عن الزحام، وطلب «علي» من القهوجي شايًا، بينما طلب «خالد» قهوة وشيشة، جاءتهما المشروبات، وأخذ «خالد» يسحب أنفاسًا عميقة من الشيشة التي يُدخنها، وهو يتابع ببصره «أحمد الصمطي» يتنقل بخفة بين طاولات المقهى الممتلئ عن آخره بالبشر.. هذا هو الفتى الذي أخبرهما «حسام» أنه طريق الوصول إلى «عمر»، كان «الصمطي» شابًّا أسمر نحيل الجسد، له شعر أسود ناعم يعتني به بشدة، وذقنه محددة بدقة دومًا كأنه يهذبها يوميًّا بمنتهى الإتقان.. يحمل في يده اليُمنى منقدًا مجوّفًا يحتوي على قطع الفحم الصغيرة المشتعلة، ويسير بين الطاولات بخفة، فيضع

اللهب على أحجار الشيشة أمام الزبائن قبل أن يطلبونه، يعرف بدقة متى يحتاج إليه كل زبون، ويلبي رغبته قبل أن ينتبه هو نفسه إليها.. هو روح المكان وأهم عامليه، أهم من صاحب المقهى شخصيًّا، فأكثر من نصف الرواد اليوميين هم زبائن دائمون له، يدخنون الشيشة بأنواعها المختلفة، والأمر لا يتعلق بمهارته فقط –التي لا ينكرها أي مُدخن ذاق الشيشة الخارجة من تحت يديه– فقد كان قادرًا على إنشاء رابطات إنسانية قوية مع معظم زبائنه، زادتْ من أهميته في المكان، حتى إن غيابه للمرض – وهذا نادرًا ما يحدث– كان كفيلًا بإحداث قدر كبير من الارتباك لا يزول إلا بعودته.

هو المدير الفعلي للمكان، رغم محدودية دوره الرسمي كونه «صنايعي شيشة»، إلا أن مهاراته الاجتماعية والعملية جعلت منه حجر الأساس الذي لا يقدر على زحزحته أحد.. خصوصًا فيما يخص التعامل مع النساء، فقد كان قادرًا على اكتساب ودهم وثقتهم بشكل لم ينجح فيه أي صنايعي غيره، واللائي كُن يشكلن جزءًا معقولًا من زبائنه.

أشار «خالد» بمبسم الشيشة تجاه «الصمطي» الذي وقف على مسافة بعيدة نوعًا ما من موضع جلوسهما، ووجه حديثه إلى صديقه:

- لو الواد المعفن ده طلع ما يعرفش حاجة عن سكة الواد الحرامي، ورحمة أبويا لأرجع لـ «حسام» اللي لهف منك حتة الحشيش اللي أخدتها مني، وآخدها من عينه.

"خالد» لم يحب «الصمطي» أبدًا، على عكس معظم رواد المقهى، بل إن «علي» غير المُدخن كان على علاقة به أكثر ودية وقوة منه.. لم تتقبل طبيعة «خالد» الحادة طريقته في المزاح والتباسط مع الزبائن، كأنه صديقهم.. وربما هنا الفارق الرئيسي بين «علي» و«خالد»، فعلى قوة صداقتهما، كانا على النقيض تمامًا فيما يخص القدرة على التعامل والتآلف مع ما يحيطهم، ربما لنشأة «علي» في حي شعبي يموج بالزخم الإنساني مثل «شبرا»، بينما «خالد» آت من ريف الدلتا، وبأصول صعيدية، تركيبة معقدة جعلته غريبًا على المدينة مهما حاول أن يتماهى معها.. إلا أن «علي» كان يعرف جيدًا أنه في داخله إنسان طيب، بل أقرب إلى الضعف والسذاجة، وكل ما يُظهره على عكس ذلك ما هو إلا محاولة للتظاهر بما لا يملك من قوة.. فقد كان رقيقًا هشًّا في داخله.

اقترب الليل من منتصفه، فأنزل «علي» فنجان القهوة الثالث الذي يشربه منذ مجيئهما، ورفع يده اليُمنى عاليًا مشيرًا إلى «الصمطي»، الذي جاءه مُسرعًا وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وصاح:

- عم «علي» الجميل هيشرب شيشة من إيدي أخيرًا ولا إيه؟! أيوه بقى، دي شكلها ليلة مملكة والسما فاتحة لي بابها..

هز «علي» رأسه نفيًا، وقال له بصوت أقرب إلى الهمس:

- عايزينك في حوار كده.. لما الشغل يهدى عليك، اسحب كرسي واقعد معانا خمسة.

أشار «الصمطي» إلى عينيه تباعًا بسبابته اليُمنى مُعلنًا موافقته، رغم نظرة الشك التي لمعتْ في عينيه الضيقتين.

وبالفعل جلس إليهما بعد أن قل الزحام في المقهى. بدأ «خالد» في الحديث وحكى له باختصار ما جرى معه من شريكه وصديقه «عمر»، وجاء سرده مُختصرًا قدر الإمكان، فقد كان الموقف ثقيلًا عليه، لم تتحمل شخصيته أن يبدو بمظهر الضحية الساذج الذي فقد كل شيء فجأة بهذه البساطة، خاصة أمام إنسان مثل «الصمطي».. لثلاثة أشهر تجرع مرارة الإحساس بالضياع والفشل كي يتجنب أن يبدو بمظهر الساذج أمام أي أحد، وغالبًا لولا ضغط «علي» وقيادته للموقف كُله، لما سلك هذا المسعى من الأساس.

استمع «الصمطي» بملامح جادة لروايته، ولم يستطع أن يبتلع الكثير من تفاصيلها التي بدتْ له شديدة السذاجة كي يقع فيها شخص مثل «خالد»، إلا أن مظهر الأخير المتداعي بلحيته الطويلة ونظراته الزائغة زادت من ريبته، لا سيما أنه بطبيعته شكّاك شديد الارتياب في مثل هذه المواقف، ولعل ريبته وحذره هما ما حققا له أمانه ونجاحه في عمله الذي يجعله يتعامل مع صنوف البشر.. نظر إليهما وقال بلهجة أقرب إلى الحدة:

- مش فاهم.. يعني أنتم يا باشاوات فاكريني مقاسم معاه؟! ولا فاكرينه صاحبي ومخبيه عندي؟

كاد الموقف أن ينقلب إلى شجار، علا صوت «خالد» ولفت أنظار العدد القليل ممن تبقوا من رواد المقهى، فارتفع صوت «الصمطي» بالتبعية، إلا أن «علي» سرعان ما نجح في السيطرة على الموقف بأن أبعد «خالد» تمامًا وأرغمه على الجلوس بعيدًا بمفرده، وعاد إلى الآخر وطيّب خاطره وتودد إليه في الحديث.. فقد كان يعرف في «الصمطي» ميلًا بالفِطرة لمن يُحسِن إليه في الكلام ويُعظِّم من شأنه، حتى لو كان هذا التعظيم في غير موضعه، استغل «علي» هذا الضعف الذي كان يعرفه في نفسيته، وبالفعل لَانَ «الصمطي» تمامًا، وزالت حِدته التي كانت منذ دقائق، وبدأ يتجاوب معه، بل وأبدى تعاطفًا مع حال «خالد» رغم أنه يعلم أنه لا يحبه –هكذا قال لـ «علي» بنبرة تقريرية تمامًا– وروى له أنه تعرَّف إلى «عمر» منذ فترة طويلة، لا يتذكر متى بدقة، ربما منذ أربع سنوات، في إحدى غرز الحشيش.. وتوطدت علاقتهما بمرور الوقت، فقد كان «عمر» سخيًّا بشدة معه، ومن خلاله دخل إلى عالم وسط المدينة، والذي يحظى فيه «الصمطي» بمكانة وشُهرة لم ينلها الكثيرون.. غير أنه أكد أن علاقته به اقتصرت على هذا، بل وانقطعت تقريبًا منذ أكثر من سنتين، وأصبحت علاقة عادية بزبون، بعد أن بدأ يلمس في تصرفاته معه جفاء لم يكن موجودًا في أيام تعارفهما الأولى.

وما لا يعرفه «الصمطي» عن «عمر» أنه هكذا كان مع الجميع في حياته، فقد كان بارعًا في التودد والتسلل لَمن يرغب في التقرُّب إليه، حتى يصل إلى مُراده، وبعدها يختفي الود تدريجيًّا، حتى يزول تمامًا.

سأله «علي» بلهجة أقرب إلى الاستعطاف:

- يعني ما فيش أي حاجة ممكن نعملها عشان نرجّع بيها فلوس الراجل ده يا «صمطي»؟ حُط روحك مكانه يا أخي، تخيل تخسر كل حاجة في يوم وليلة وتلاقي نفسك قصاد الدُنيا عريان..

في باطنه آمن «علي» أن «الصمطي» يستطيع أن يساعدهم بشكل أو بآخر، فقرر أن يرمي ورقته الأخيرة ليكتسب تعاطفه، فقال وقد اقترب برأسه منه أكثر، رغم تحسسه من رائحة المعسل الثقيلة التي تفوح منه:

- أنت عارف إن حتى البنت اللي كان بيحبها سابته وخلعت منه، بعد ما قلّبته في فلوس وعربية اشترى لها! ده أغلب من الغُلب والله..

لانت ملامح «الصمطي» تمامًا وسيطرت عليه مشاعر التعاطف، رغم نفوره الشديد من «خالد» منذ زمن.. صمت لثوانٍ ثم أخبر «علي» أن ينتظره نصف ساعة حتى ينتهي من ورديته ويتسلم أجره من صاحب المقهى، ويرحل معهما. وعندما سأله عن وجهتهم، قال له بابتسامة ماكرة:

- ما تخافش يا غالي.. أنا هاخدك لي عنده دايمًا الحل في المواقف الهِباب اللي زي دي.

وفي اللحظة التي تركزت فيها نظرات «علي» على أسنان «الصمطي» التي اسودت من تدخين المعسل والحشيش، بينما يجلس «خالد» منزويًا على منضدة بمفرده غارقًا في أفكاره السوداء، كان قد مضى على جلوس «سما» –في مقابل أمها– على سُفرة الطعام أكثر من ربع ساعة، لم تأكل فيها سوى عدة لُقيمات بعدما ألحت عليها أمها أن تأكل شيئًا رغم أن موعد العشاء قد تأخر كثيرًا، فطاوعتها «سما» بالجلوس إلى المائدة، لكنها اكتفت بالعبث بقطعة من الخبز في طبق الجبن الأبيض دون هدف واضح، بنظرات زائغة حزينة تدل أن عقلها وتركيزها في مكان آخر تمامًا.. الأيام تتراكم في مُضيها، وزوجها لم يراسلها حتى، لم تعتد منه على هذا الجفاء، حتى في الشجارات الأكثر عُنفًا، حتى عندما خلعت دبلة الخطوبة يومًا ما وتركتها أمامه على طاولة أحد الكافيهات، لم يغب أكثر من نصف يوم، وكان جالسًا في عندها، هناك على كرسي الأنتريه الواقع إلى يسارها، يسترضيها ويُقنعها بأنه لا يمتلك في الحياة شيئًا أغلى منها.

عبث بها الحُزن رغمًا عنها، رغم صلابتها وتظاهرها باللا مبالاة، هذا الثقل الجاسم على صدرها الآن يُخبرها جيدًا أنها تبالي جدًّا بشأنه.. في أعماقها خوفٌ لا يهدأ إلا بتأكدها من مقدار غلاوتها في قلب مَن يحبها، دومًا تشعر بهذه الرغبة الضاغطة على أعصابها، تريد ممن يحبها أن يُثبِت لها هذا الحب كل يوم، كل ساعة لو كان هذا منطقيًّا.. يد الأب التي رمتها إلى بُعدٍ منذ زمن، وقبلها هوت بالصفع والركل على أمها، هذه اليد التي رحل صاحبها عن عالم الأحياء لا تزال قابضة على زمام حياتها، تشعر بها تلكزها في قلبها كل يوم، هذا الهاجس الذي يخبرها أنها ليست جميلة بما يكفي كي يحبها أحد ويتمسك بها فعلًا إلى الأبد، لا بد من لحظة يزهدها ويرحل.. لم تصارح «علي» بهذا رغم أنها في داخلها كانت ترتجف من هاجس أنه لا يحبها كما يحاول أن يُظهِر، لو كانت تستحق الحب، فلماذا لم تلمح في عين أبيها ولو مرة نظرة حب؟ بل لِمَ لَمْ يكن ينظر إليها من الأساس؟ كانت تشعر أنه ينظر من خلالها إلى أشياء أخرى لا تدركها، كأنها مجرد لوح زجاجي يعترض طريقه، حِمل يعيقه عن الانطلاق إلى العالم

برحابته وملذاته التي تنتظره.. لم يكن ابن الأسرة العريقة يريد الزواج من الأساس، لكن الأسرة أجبرته على الزواج من أمها –ابنة نفس الطبقة وإن كان مستواها المادي أقل قليلًا– وإلا يُحرَم من المال وحماية العائلة إلى الأبد، ولم يكن مُستعدًا لمواجهة العالم دون دِرع المال والسُلطة أبدًا.

تزوج مجبورًا دون أن يعترف لنَفْسه بأنه لا يطيق فكرة الزواج من أساسها، لكنه حاول في البداية أن يتعايش مع جو الأسرة والاستقرار، شهر بعد شهر وتسلل الملل إلى روحه سريعًا، ومعه بدأت بطن أمها في الانتفاخ، قادمة بها إلى الدنيا، وهنا أحسّ أنه تورط بالفعل في ما لم يكن يتخيل تحققه رغم منطقية حدوثه.. تتذكره جالسًا، هناك قُرب الشُرفة –على الكُرسي الجلدي الكبير الذي حرصتْ فيما بعد على التخلُّص منه– في روب حريري يحيط جسده، على ملامحه الوسيمة إرهاق، وفي عينيه بقايا نُعاس لم يذهب كاملًا، ذهبت إليه بخطوات مرتبكة، كانت في عمر الثامنة أو التاسعة، لا تتذكر بدقة الآن، لكنها تتذكر يدها الصغيرة الممدودة بورقة مُنتزعة من كراسة الرسم، لوحة طفولية للحيوانات في الغابة، بمنظور ساذج قليلًا يناسب عُمرها في حينها، لكنها نالتِ استحسان مُعلِّمة الرسم، التي احتضنتها وأخبرتها أنها موهوبة.. لا تزال تتذكر أناملها الصغيرة مرتفعة في الهواء، والورقة بين أطرافها..

"بابي.. الميس قالت لي إن رسمتي دي حلوة وعجبتها أوي..»

لم يلتفت إلى الورقة الممدودة إليه، لم يُعدّل من جلسته حتى، اكتفى بإزاحة يدها من أمامه كي لا تعيق مجال رؤيته للتلفاز وغمغم: «آه حلوة».. عادت إلى غرفتها يومها، مزّقت الورقة في عنف، لم تبكِ، تتابعت أنفاسها متسارعة لكنها لم تستطع البكاء، ولم تعرض ما ترسمه على أحد منذ ذاك اليوم، رغم تطوُّر موهبتها بمرور السنين، حتى «علي» عندما شاهدها بعد الزواج وهي ترسم بالصدفة، عندما عاد في غير موعده ولم تنتبه إلى صوت دخوله، أخفت الورقة بسرعة ورفضت بعنف أن تريه إياها، حتى إنها كادت أن تفتعل مشاجرة ليتوقف عن إلحاحه على رؤية الورقة التي أخفتها.

لم تتوقع منه ردة الفعل الباردة تمامًا هذه، كُسِر شيء ما بداخلها.. كل هذه الحِدَّة والصلابة لم يكونا في الواقع إلا غلاف تختبئ من ورائه طفلة تنتظر أن يُطمئنها من يحبها، أنه حقًّا يحبها، وأنها لن تصحو في يوم من الأيام لتجده لم يعد موجودًا.

نقرت الأم على زجاج السُفرة بأطراف أصابعها لجذب انتباهها، وقالت وهي تنظر في عينيها بملامحها الوديعة:

- اللي واخد عقلك يا سمسمة.. لو «علي» أنا مسامحاه عشان بحبه.

ابتسمت «سما» بمرارة وهزّت رأسها دون معنى واضح، لتكمل الأم حديثها وهي تنظر هذه المرأة في اتجاه التلفاز:

- اتصل بي من كام ساعة على فكرة، سلِّم عليّ وكان بيطمن عليكِ..

ونظرتْ إلى «سما» بطرف عينها لترى أثر الخبر عليها. فتبسمت «سما» بسخرية، ثم قالت بحدة:

- يااااه اطمن عليّ! فيه الخير والله.. ما هو جوزي بردو، كويس إنه اطمن عليّ.

لم يعرف طبيعة «سما» الضعيفة في حقيقتها أحد، بقدر ما أدركتها «فاتن».. ليس لأنها أمها فقط، لكنه إحساس الذنب الذي سيطر عليها تجاهها في كل يوم كانت ترى حدة طباعها في تزايد، كانت تدرك أكثر أن كل هذا ما هو إلا ميراث الزواج الفاشل الذي جاءتْ «سما» نتيجة عنه، ولم تستطع حمايتها من آثاره، رغم تحمّلها الكثير من الإهانات مما لم تكن تستحقه فقط كي لا تنشأ ابنتها في بيت بلا أب.

صحيح أن البيت كان منذ نشأته بلا أب يحمي ابنته ويتحمل مسؤولية أسرته، لكنّها ظنّت أن وجوده –ولو على سبيل «خيال المآتة»– قد يجعل من الوضع أفضل بشكل أو بآخر.. إلا أن الأمر فشل كله في النهاية، وهو الذي تركهما دون رغبة في الاطمئنان عليهما، اكتفى بإرسال الأموال شهريًّا لهما كأنه يبعث بتبرع، كأن ما يحتاجونه منه هو المال فقط.

نظرتْ تجاه الشاشة، وقالت لـ «سما» كعادتها عندما تخشى النظر في عيون مُحدِثها:

- ما بردو أنتِ اللي طلبتِ تسيبي البيت يا سمسمة.. أي راجل هيزعل إن مراته تصمم تسيب له البيت بعد نُص الليل!

لم تكد تكمل جُملتها، حتى قالت «سما» بحدة:

- وهو أنا قلت له أسيب البيت كده من نفسي؟ من الباب للطاق؟ مش ده بعد ما قال لي إني أكتر إنسان أناني قابله في حياته؟ أنانية عشان عاوزة له وعاوزة لي مستقبل أحسن! مفروض أسمع كده وأدخل أنام جنبه عادي يا ماما؟!

توترت «فاتن»، بحكم طبيعتها التي لا تحتمل الحِدَّة والصوت المرتفع، وأجابت ابنتها بشيء من العتب قائلة:

- مستقبل أحسن ليه! وأنتوا عايشين هنا كويس بالفعل يا «سما»! أنتِ شغالة في شركة كبيرة غيرك ما يحلمش يعمل إنترفيو فيها، وهو شغّال في شركة دعاية وإعلان كبيرة وبتتوسع.. إيه اللي مخوّفك في حياتك ويخليكِ تسافري وتتغربي؟

فردت عليها «سما» بلهجة مُتحديّة:

- عشان بره هنعيش أحسن.. فيها إيه لما يساعدني وهو عارف إن جاي لي فُرصة بترقية في فرع الشركة في دبي، هيحصل إيه لما يساعدني ويبني معايا مستقبل أحسن لينا؟ الشركة اللي هو شغّال فيها ممكن بُكره يقولوا له مع السلامة، بره هيعرف يلاقي لنفسه مكان أحسن وأرقى بكتير.. بس هو مش عاوز.. عاوز يعمل اللي يريحه وخلاص وأولع أنا.

لم يكن الأمر في حقيقته مُتعلقًا بسفرٍ من عدمه، كانت الأم تُدرك هذا جيدًا، وتعلم أنها طبيعة ابنتها، التي لا تطمئن روحها إلا عندما يطاوعها الجميع فيما تريد، هكذا تهدأ، هكذا تشعر أنها مرغوبة

ومحبوبة.. دون أن تدرك كم يضغط هذا على مَن حولها وإلى أي حد يرهقهم، حتى وهي أمها كانت لا تطيقها أحيانًا بسبب هذه التصرفات.

اكتفت «فاتن» بالصمت مؤقتًا، وهمست ابنتها:

- الحمد لله.

وقامت بعد أن جمعت الصحون، واتجهت إلى المطبخ عبر الرواق الطويل، وفي قلبها الكثير من الغضب تجاه زوجها.

بعدها بدقائق، وبينما كانت «سما» واقفة تغسل الأطباق في المطبخ، إذ تُخرج غضبها وغِلها كعادتها منذ سنين مراهقتها في العمل، فتشعر بالراحة عندما تشاهد المطبخ نظيفًا وكل شيء في مكانه.

اتجه الثلاثة: «الصمطي» و«خالد» و«علي»، بعد انتهاء نوبة عمل الأول، إلى وجهتهم؛ حيث سيجدون الحل.. جلس «الصمطي» بجوار سائق «أوبر» يشرح له وجهتهم، بالقُرب من أحد الشوارع الرئيسية في «دار السلام».. و«علي» منهمك في متابعة شيء ما على إحدى صفحات الوكالات الإعلانية على «فيسبوك»، يتفحص الجديد في حملتهم الدعائية الأحدث، بينما كان «خالد» غارقًا تمامًا في عالمه الخاص.. في داخله حقيقة لم يصارح «علي» بها منذ أتى إليه أمس، وهو أنه لم يكن مُهتمًّا بماله الذي سُلب إياه، ولا خيانة صديقه له، بقدر ما سكنه ألم من نوع خاص بسبب ما فعلته «سالي» به، بعد كل هذا الحب، وكل ما قدمه لها راضيًا، وصراعه مع أمه وعائلة أبيه كي يقبلوا بعروس مُستقبلية تعمل عازفة موسيقية، من أسرة متواضعة بلا نسب عريق.. تحمل من ورائها ألمًا كثيرًا من قبل، لكنه كان يُصبِّر نَفْسه بحبه لها، وحبها له، أو ما توهم أنه كان حبًّا منها.. ثم جاءت ضربة «عمر» لتُسقطه تمامًا بعد تعرضه لخيانة «سالي» وهروبها، كان غارقًا في حزنه على حبيبته وحسرته من خيانتها، إلى درجة لم تسمح له حتى الآن بالحزن على أمواله التي خسرها جراء خيانة صديقه له، واستغلاله لفترة ضعفه.. كأن الألم الأكبر خدَّره، فلم يعد عقله قادرًا على إدراك أي ألم آخر، مهما كان مُفجعًا.. فبهجرها له نبتت بداخله كل بذور انعدام الثقة بالنفس التي خبأها داخله سنين خلف قناع التعالي والاستغناء الذي يُصدِّره لمعظم الناس، حتى أهله.

بعد رحيلها تأكد لديه إحساس دفين بأنه لا يستحق الحب، حتى مَن يحبونه يعتبرونه مرحلة في حياتهم يجب تجاوزها، لم يكن سوى محطة لا يستقر عندها أحد أبدًا، بل يكتفي الجميع بالمرور بها، بدا أمام روحه استراحة تصلح لاحتضان المُتعبين، حتى يجدون مَن هو جدير بهم حقًّا، فيرحلون.. لم تكن «سالي» أول فتاة تهجره في حياته، لكنها كانت التجربة الأكثر صدقًا وكثافة.. ورغم أنها استغلته بكل السُبل المادية والعاطفية، إلا أنه كان مستسلمًا وراضيًا تمامًا بهذا الاستغلال، حتى وهو يدركه في قرارة نفسه، ظلَّ قادرًا على إسكات صوت عقله، ولم ينتظر منها شيئًا أكبر من أن تحبه.. تحبه ولو نصف حبه لها، ربما لرضي بالربع، لا بأس بعُشر حبه لها، سيرضى به، لكنَّها في النهاية استكثرته عليه.. ورحلت وتركته عالقًا في بقعة سوداء لا يصلها نور.

انتزعه من أفكاره الكئيبة صوت «الصمطي» وهو يصيح بصوته المحشرج، وقد التفت إليهما:

- وصلنا يا غوالي.. هننزل هنا عشان ما فيش عربية تعرف تدخل جوه.. حمد لله ع السلامة.

13

نزل ثلاثتهم من «التوك توك» الذي استقلوه من أول الشارع الرئيسي، وعند نقطة معينة أشار «الصمطي» بيده إلى الطفل الذي قاد بهم، بعد أن غاصوا إلى حد ما في أعماق المنطقة، بعيدًا عن محطة المترو، والشارع الرئيسي بزحام سياراته وبائعيه.. إلا أن التوك توك أيضًا له حدود لا يمكن له تجاوزها، يبدو أن هذه الأزقة بعضها لا تتسع لمروره من خلالها.. قفز «الصمطي» بخفة من موضع جلوسه بجوار السائق.. ودخلوا معًا إلى الزُقاق المُطل على الشارع.. بدا «الصمطي» في مسيره الهادئ المطمئن جزءًا من المكان، منتميًا إليه، حتى ملابسه متنافرة الألوان بلمسة البهرجة البصرية اللافتة تناسب ما يحيطهم الآن، خلاف لـ «علي» و«خالد» اللذين لم يكونا مضطرين للإفصاح عن أنهما لأول مرة يدخلون فيها إلى عمق القاهرة المُظلم هذا.. صحيح أن «علي» ابن منطقة شعبية، لكن لا وجه للمقارنة هنا، «شبرا» حي قديم له جذور ممتدة، حي شعبي بعيد عن العشوائية التي يغوص فيها الآن.

الزقاق يتسع بالكاد لمسير اثنين متجاورين، ولو كان أحدهما سمينًا قليلًا فغالبًا لن يسمح بوجود أحد بجواره.. على اليمين واليسار بيوت قصيرة الارتفاع، فقيرة المظهر بشكل لافت، جدرانها لا تعرف الألوان، نظر «علي» إلى الأعلى فلم يلمح شرفات مُطلقًا، لا يوجد سوى بضع شبابيك متناثرة كثقوب كئيبة في الجدران، لا بد أن شرفات هذه البيوت تطل على شارع أو زقاق آخر.. الأسوأ في الأمر كانت الرائحة التي أحاطتْ بهم من كل مكان، رائحة عطن غريبة كأنها مُختزنة هنا منذ عشرات السنين.. كتم «خالد» أنفاسه ولم يستطع التحكم في عضلات وجهه التي رسمت تعبيرًا مشمئزًا، لمحه أول مَن قابلهم عند خروجهم لساحة كبيرة نوعًا ما، كان شابًّا في منتصف العشرينيات، مجعد الشعر وحول عينيه هالتان سوداوان يدلّان أن الحشيش ليس أسوأ ما يشربه غالبًا.. نظر إلى ثلاثتهم باستنكار، خصوصًا الضيفين الغريبين.. وقال لـ «الصمطي» مؤنبًا:

- مش هتبطل يا «صمطي» تجبلنا الأشكال العجب اللي بنشوفها من وراك دي؟

سبّه «الصمطي» بأمه وأبيه، وكاد أن يركله، لولا أن ابتعد مُحدّثه مشوحًا بيده.. نظر «علي» حوله يتفحص المكان، بدت الساحة كميدان صغير تصب فيه أزقة عدة قادمة من كل اتجاه، أرضها غير ممهدة، وتبدو أقل ارتفاعًا مما يُحيطها، كأنها موضع المَصَب لفروع نهر متعددة.. في إحدى الزوايا مقهى كبير نسبيًّا بالنسبة إلى طبيعة المنطقة المُبالغة في فقر مظهرها، حتى إنه لمح بيتًا في زاوية الساحة يبدو أن شُرفته متهدمة، وأسفلها بقايا قطع صغيرة من الطوب يبدو أنها سقطت حديثًا إلى أرض الساحة.. تفادى «خالد» مرور مفاجئ لحمار يسير مُسرعًا، خلفه صبي مراهق يضربه بعصا غليظة على بطنه مطالبًا إياه بالإسراع، قبل أن يختفيا في أحد الأزقة.. أمسك «علي» ذراع «الصمطي» برفق لجذب انتباهه، وقال له ضاغطًا على حروفه:

- أنا عارف إنك عايز تساعدنا، بس أنت متأكد إن في هنا حد يقدر يساعدنا في مشكلة خالد؟

ابتسم «الصمطي» كاشفًا عن أسنانه السوداء، وقال بعد أن حرر ذراعه من يده، وواصل سيره البطيء في اتجاه المقهى المقابل لهم، وهو يرد عليه بثقة:

- عيب عليك يا غالي.. ما يغركش منظر الفقر اللي حواليك، أنت دلوقتي جوه مملكة الغنايمة، وثواني وهتقابل الملك بتاعها كمان.. واللي بعون الله أنا عارف إنه هيلاقي سكة يرد بيها حق صاحبك.

رد «الصمطي» تحية كهل مرّ بجواره وحيّاه باسمه، بينما اكتفى «خالد» بالنظر إليه وإلى كل شيء حوله بتشكك وبشيء من الاشمئزاز، بينما بدا «علي» عازمًا على الاستفادة قدر الإمكان من هذه الزيارة التي لم تكن في الحُسبان.

رفع «علي» رأسه وطالع اللافتة الخشبية المُعلقة فوق باب المقهى: «مقهى الغنيمي تُرحب بكم»، وكاد أن يدخل من بابها الخشبي نصف المفتوح، إلا أن «الصمطي» الذي سبقه في المسير توقف فجأة، والتفت كمَن تذكَّر للتو شيئًا مهمًا، ثم تساءل:

- هو النهاردة التلات!

هز «علي» رأسه مؤكدًا، فظهرت علامات لخيبة الأمل على ملامح «الصمطي»، الذي قال شارحًا وهو ينظر في أعينهما بشكل مباشر كي يجذب انتباههما إلى ما يقول:

- أنا كنت مسقَّط إن النهاردة التلات، فركزوا معايا في الكلمتين دول كويس قوي.. هتدخلوا معايا دلوقتي القهوة وهنروح نسلّم على الحاج «عبده الغنيمي»، ده كبير الناحية دي كلها وبيعتبرني في غلاوة ابنه وهو اللي ربّاني ورعاني.. هتلاقوا في قَعدة منصوبة، فيها الحاج وكام راجل تانيين قاعدين حواليه، وهتلاقوا معاه بنته «ورد»، دي زي قعدات العرب اللي بتتعمل بين أهالي المنطقة الواحدة، الحاج اتعود يعملها كل تلات عشان صاحب الحق يترد له حقه.. الحاج قليل الكلام وله احترامه، فما تصغرونيش معاه.. هندخل ونسلّم عليه، أذن نقعد ونحضر القعدة، هتقعدوا وتسمعوا.. ما أذنش، هنقعد نستنى هنا بره القهوة على أي ترابيزة من اللي بره دول لحد ما «قعدة العدل» تخلص.

سأله «خالد» ساخرًا وهو ينظر إلى الطاولات والكراسي الخشبية المتناثرة أمام المقهى وجانبه:

- هو بيسميها «قعدة العدل»؟

نفخ «الصمطي» بغيظ، وقال ضاغطًا على أسنانه:

- ويضايقك في إيه يا عم «خالد»؟ يسميها زي ما يسميها، دي حاجة تُخصنا مالكش فيه.. اللي لك فيه إن حقك بعون الله يرجع لك..

ثم أضاف مُنبهًا قبل أن يدخلوا:

- اوعوا حد يضايق بنت الحاج، أو يركز معاها وتضايق منه.. دي أعز عنده من نور عينيه.

لم يفهم كِلَاهُمَا هذا التحذير الأخير، كيف يضايقونها بنظراتهما؟! ولماذا تحضر فتاة إلى جلسة كهذه وفي مقهى للرجال؟!

وسرعان ما انكشفت بعض الإجابات فور دخولهما، أخذ «الصمطي» يحيي بعض الجالسين، وتبادل معهم المزاح والسباب، دخان الشيشة يتصاعد في كل الأركان، ما عدا الركن الأقصى الذي جلستْ فيه

مجموعة متقاربة على شكل دائرة شبه منتظمة، في منتصفها يجلس رجل يرتدي بذلة سوداء أسفلها قميص أبيض، في مظهره فخامة لا تناسب ما يحيطه أبدًا، قمحي البشرة، شعره يميل إلى السواد ومصفف بعناية إلى الوراء، له ملامح صعيدية لا تخطئها عين، أنف مدبب، وشفة عُلْيَا عريضة يُزينها شارب خطّه الشيب قليلًا، عظام فكه بارزة قليلًا، وجه منحوت تُزينه عينان ضيقتان نسبيًّا، إلا أن نظراتهما لهما هيبة غريبة، تبدو لك عندما تواجهك كأن صاحبها يزنك، يتفحصك على مهل ليعرف ماذا تخبئ قبل أن تبوح بما تريد.. وعلى يمينه جلست فتاة بدت في العشرينيات من عمرها، ترتدي عباءة سوداء فخامتها بادية، والطرحة تحيط بملامحها البريئة، نظرت إلى ثلاثتهم أثناء اتجاههم نحو موضع جلوسهم، بالتحديد إلى «علي»، وابتسمت ابتسامة طفولية أضاءت لها ملامحها العذبة.. فهما عندما رآها لماذا حذرهما «الصمطي» من مضايقتها، كانت من أصحاب «متلازمة داون».

قدّمهما «الصمطي» إلى الحاج «عبده»، الذي نهض وصافحهما بقبضة قوية، وطالع كلًّا منهما في عينيه وهو يتمتم بعبارات الترحيب.. بدا الجالسون متضايقين من ظهور الغريبين بصُحبة «الصمطي»، فقد قاطعوا حديثًا يبدو أنه كان في منتصفه.. صافحوهما في غير عناية، إلا «الصمطي» الذي مازحه أكثر من واحد من الجالسين، والذين بدوا خليطًا مختلفًا من حيث السن والملامح، لا يجمعهم سوى ما يطبعه فقر الحال على أصحابه في مظهرهم.

مال «الصمطي» إلى أذن الحاج اليُمنى، بدا أنه يستأذنه في الجلوس له ولضيفيه، فابتسم الحاج وقال له بصوت مسموع:

- عليك حاجات يا جدع أنت.. ما أنت عارف إن النهاردة التلات.. ناخد حُكم «ورد».. إيه رأيك، يقعدوا معانا؟

ارتبك الضيفان بشِدَّة، لم يفهما هل يطردهما بلطفٍ مثلًا، لم يستوعبا أنه يسألها رأيها حقًّا، إلا أنهما لاحقًا سيعرفان أن رأيها مسموع عند أبيها في أشياء أكثر خطورة بكثير.

كادا أن يستأذنا ويهمّا بالخروج، قبل أن تنطق «ورد» وهي تبتسم وتشير نحوهما بأصابع يدها الرقيقة:

- يقعدوا يا بابا.. طيبين.. بالذات ده، طيب قوي.

كان إصبعها مُوجهًا نحو «علي»، الذي ابتسم بشكل تلقائي، ولم يعرف كيف يرد هذا الإطراء، كانت غرابة الموقف تُلجمه، إلا أنه سرعان ما شكرها قائلًا في بساطة:

- تسلمي يا ست الكل..

مدَّ الحاج كلتا يديه وقال بصوته القوي رغم هدوء نبراته:

- طب إيه واقفين ليه يا رجالة؟ ما الست «ورد» قالت تقعدوا.. اتفضلوا نورتونا.

ثم نادى بصوت جهوري مفاجئ على القهوجي، الذي أتى مُسرعًا كأنه كان يتوقع هذا النداء، سائلًا الضيوف عما يرغبون في شُربه.. طلبا شايًا على سبيل تسهيل الأمر عليه، فذهبَ جريًا كما جاء.. وجلسا في ترقُّب يتابعان «قعدة العدل» التي بدأت تستأنف مداولاتها، كأنهما غيرا موجودين.

توجّه الحاج «عبده» بنظراته إلى أحد الجالسين عن يمينه، وأشار إليه كي يكمل حديثه.. كان شابًّا في الثلاثينيات، له بناء جسدي قوي، وشعر طويل لامع رغم تجعيداته، بفعل كريمات الشعر غالبًا.. كان الشاب مصممًا على إنكار التُهمة التي يتهمونه بها، لم يفهم الضيفان ماهية هذه التهمة من حديثه، إلا أنه ظهر مصممًا على إنكارها مُقسمًا بأغلظ الأيمان.. بدت ملامح الجالسين متشككة في حديثه، طالعوه بملامح متفحصة لا تصدق ما تسمع، خصوصًا العجوز الذي جلس إلى يسار الحاج، بجوار «ورد» مباشرة، فقد بدت عضلات فكه وكأنه يجز على أسنانه كاتمًا غضبًا.. إلا أن الحاج «عبده» استمع في صبر إلى حديث الإنكار، وأخذ يهز رأسه.. حتى جاء القهوجي حاملًا طلبات الضيفَيْن، وعندها التفت الحاج بهدوء إلى العجوز الجالس على يساره، وقال له:

- التليفون والنبي يا «أبو فارس».

والتقط منه هاتفًا حديثًا، له شاشة كبيرة، وأخرج من جيب معطف البذلة الداخلي عوينات قراءة، وضعها بهدوء وهو يضغط على شاشة الهاتف.. وبدأ في التحدث وهو ينقر بهدوء على الشاشة بأصابعه الغليظة:

- أنت بس فيه حاجة مش فاهمها يا «حمادة».

نظر الضيفان إلى بعضهما مقاومين الابتسام، هذا الثور الآدمي اسمه «حمادة»! عمومًا ليس هذا أغرب ما في هذه الليلة..

أكمل الحاج حديثه وقد توقفت أصابعه عن النقر على شاشة الهاتف:

- أنا مش ضدك.. أنت في بير، وأنا بحاول أنجيك منه.. وما قداميش غير حلين: يا أمد لك إيدي وأطلعك منه، يا أردم عليك..

بانت ملامح الخوف على وجه «حمادة»، الذي بدأ يُعرِب عن تبجيله للحاج، ويقسم له أنه سارع في الحضور رغم أن أولاد الحرام أقنعوه بألا يقترب من الحاج.. ورغم تعرُّض بعض الجالسين له قبل هذه الجلسة بالشر والتهديد، إلا أنه لم يتأخر أبدًا عن الحضور عندما عرف أن الحاج طلبه.. فابتسم الحاج ابتسامة عريضة، وأنزل عوينات القراءة وتوجه إليه بعينين نافذتين وهمس:

- هو أنت كنت تقدر ما تجيش؟ بعيد أنت يعني، مش هعرف أجيبك؟

فبدأ مُحدثه ينفي ما قاله الحاج بفزع كأنه إثم عظيم يُبعده عن نَفسه، ليتجاهل الحاج حديثه ويضغط على الشاشة مُشغلًا مقطعًا صوتيًّا واضحًا، يُظهر صوت «حمادة» وهو يتحدث مع أحد مخبري الشُرطة، ويدلّه بالتفصيل على خط سير شخص يُدعى «الرويعي»، فَهِمَ الضيفان أن الأمر يتعلق

بإفشاء «حمادة» لأمر «الرويعي» لأحد المخبرين أو أمناء الشرطة؛ حيث كان على وشك تسليم شُحنة من الحبوب المُخدرة عند نقطة مُعينة قرب الطريق الصحراوي.

ساد الصمت تمامًا حتى انتهى التسجيل الصوتي، وملامح الحاج «عبده» مرتخية في لا مبالاة، ثم أعطى الهاتف لـ «أبو فارس»، وتنحنح وأشعل سيجارة ثم قال:

- من يوم ما منعت تجارة أي كيف بينا لأجل القرف اللي بيجي من وراه، وأنا عارف إن فيه وشوش مش عاجبها الأمر.. زيه زي أي حاجة في الدُنيا، عمره ما هيعجب كل الناس.. ولو كنت عرفت إن «الرويعي» خالف أمري وعهدنا، كنت اتصرفت معاه بطريقتي.. بس إنك تدخل الحكومة ما بينا يا «حمادة»، لا لا دي بالنسبة لي حِسبة تانية خالص..

ثم وضع ساقًا فوق ساق، وطبطب بحنو على كتف «ورد» التي جلست تعبث بقدمها في الأرض كطفلة وديعة، وأكمل حديثه:

- مفيش أوسخ من الكدب يا «حمادة» غير الغدر، وأنت مش بس غدرت بـ «الرويعي» ولبسته قضية، لا ده أنت غدرت بيَّ وبكل واحد قاعد في القعدة دي، وبكل واحد ساكن معانا وحوالينا.. دخول الحكومة بينا غدر، والغدر مالوش عندي مكان هنا.. ما يصحش، عيب..

عَلَت ملامح الحاج ابتسامة كأنه يؤنِّب طفلًا صغيرًا، ولم تعلُ نبرة صوته أو تحتد، بل بدا مُسترخيًا وهو يضيف نافخًا دخان سيجارته تجاه «حمادة» الذي امتقع وجهه واسود ووضع عينيه في الأرض:

- حُكمنا عليك يا عم «حمادة» إنك يتغدر بيك زي ما غدرت.. نرتب لك قضية حلوة على مقاسك، تتحدف من دور عالي، تدهسك عربية، أنت ونصيبك.. وبردو ميعاد الغدر ده هيبقى أنت ونصيبك، كمان يومين ولا شهر ولا سنة ولا يمكن خمس سنين، ما عرفش، ولا حد عارف.. هنسيبك تعيش وأنت مستني مصيبتك.. إيه رأيك يا ست «ورد»؟ مش يستاهل؟

سألها بود وهو ملتفت إليها بجسده كله، فأشارت برأسها بالإيجاب وعلى ملامحها غضب وهي توجه بصرها إلى المُذنب.

فقال الحاج كلمته الأخيرة:

- شيلتك تقيلة.. الله يعينك ويسد ما عليك يا «حمادة».

في أثناء حديث الحاج، أخرج «أبو فارس» دفترًا كبيرًا أشبه بدفاتر الحسابات لدى تجار الجملة، وبدأ في كتابة ما بدا أنه نص الحُكم الصادر على المذنب.. دب الرُعب في قلب الضيفين، لم يستوعبا ما يجري، وتشككا في كل شيء، هدوء وسلاسة ما يتم لا يناسب قسوة ما سمعا، تخيل أن تعيش ما تبقى من حياتك لا تعرف متى تتلقى عقابك، دون أن تعرف ماهيته بالضبط حتى!

حاول «حمادة» الحديث بلهجة أقرب إلى البكاء، انهار فجأة كأنه أدرك للتو فداحة ما ارتكب، إلا أن اثنين من الجالسين حوله منعاه من استكمال كلامه، وسحباه سحبًا إلى خارج المقهى، بينما الحاج

منشغل بحديث هامس مع ابنته، انتهى بأن تبادلا الضحكات الرائقة، وانفضَّ الجمع من حولهما وغادروا جميعًا، ما عدا الضيفين، تسمرا على كرسيهما كأن سيقانهما عاجزة عن الحركة.

14

نظر «علي» إلى شاشة هاتفه التي أضاءت لعشرين مرة تقريبًا في آخر ساعة باتصالات من أمه.. حمد الله أنه جعل الهاتف على وضع الصامت قبل ولوج المقهى، ورغم الرسالة التي بعثها إلى أمه يُعلمها أنه سيتأخر الليلة لدواعي العمل، إلا أنها لم تيأس واستمرَّت في اتصالها وإلحاحها، فلم يجد أمامه مهربًا من إلحاحها إلا أن يُغلق الهاتف تمامًا، ويلحق بـ «خالد» و«الصمطي»، والحاج يسير بصُحبة ابنته يسبقهم بخطوات مُتجهين إلى تناول الشاي في بيته، والحديث فيما جاؤوا من أجله. لا يدري ما الذي يمكن أن يقدمه الحاج عبده إليهما، لكن شيئًا في نفسه يخبره أن هذا الرجل قادر على مساعدتهما حقًّا. طريقته وصوته ونظراته وملامح وجهه، كلها تخبر بحكمة مستقرة في رأس هذا الرجل، حتى حكمه القاسي على الشاب في القهوة كان دليلًا على قوة منطقه، وقدرته على وزن الأمور بميزانها الخاص، ولذلك كان يشعر بشيء من الثقة في أن هذا الرجل سيكون لديه مفتاح لقضيتهما المغلقة، وإن كان لا يشعر بالأمان الكامل في حضرته، حكمته وقسوته مقترنان، يمكنك أن تثق في عدله لكن لا يمكنك أن تثق في رحمته، شيء من القلق يظل عالقًا في قلبك تجاهه مهما حاولت أن تطمئن إليه.

توقف الحاج للحديث مع أكثر من شخص خلال المسافة القصيرة التي مشوها من المقهى إلى منزله، أغلب من صادفهم لم يكن يطلب شيئًا مُحددًا، فقط كانوا يريدون تبادل قليل الكلمات والمُزاح مع كبيرهم. كان «خالد» مُندهشًا للغاية، كان على عكس «علي» في إحساسه تجاه الحاج «عبده»، فقد قرر بينه وبين نَفْسه أنه لن يرتاح للحاج مهما حدث، حتى لو ساعده في استعادة ماله بالفعل كما يقول «الصمطي»، فما شاهده منذ دقائق في المقهى جعله يرى في هذا الرجل –الذي يسير بهدوء واضعًا يده اليُمنى على كتف ابنته يحوطها– وحشًا لن تقلل من شراسته ابتسامته الودودة، ولا نبرة صوته العميقة الهادئة.. كيف يحب الناس شخصًا مثل هذا، حتى إن بعضهم أوقفه فقط ليصافحه ويدعو له بأجمل الدعوات رغم بساطة صياغتها!

«علي» ورغم ما أصابه من رعب بسبب ما شهده منذ قليل، إلا أنه شعر نحو الحاج براحة وألفة لم يتأثرا بالخوف، أخبرته نَفْسه أن هذا الرجل يمتلك في داخله أشياء حقيقية، أكبر من القدرة على البطش وتوجيه العُنف، لهذا الرجل أبعاد إنسانية غريبة يشعر بها، غريبة بقدر غرابة المكان الذي يسكنه ويسيطر عليه.

اكتفى مَن أوقفوا الحاج بالسلام عليه وإمطاره بعبارات الامتنان على تصديه لمشاكل تخصهم، إلا امرأة واحدة، استوقفته وكان لديها مَطلب، صافحها الحاج بوِد أبوي ظاهر في صوته. فهم «علي» من حديثهما معًا أنها زوجة «الرويعي» الذي ضُبط في قضية المخدرات بسبب خيانة «حمادة». شابة جميلة لا يمكن أن تقع عيونك عليها دون أن تنجذب إليها، تنجذب إلى شيء لا تعرف سره، اسمها أيضًا كان لافتًا كمظهرها، بل كان اسمها يحمل سر جاذبيتها: «سَكِينة».

شابة متوسطة الطول، بيضاء البشرة، لها جسد متناسق يميل إلى الاكتناز قليلًا، ترتدي عباءة سوداء مُطرزة من الجانبين، لا تضع أي مساحيق للزينة، لكن مَن قال إن هذه الملامح المتناسقة والشفتين

الطريتين في حاجة إلى شيء ليبرز جمالهم؟!

لم يستطع «علي» منع عينيه من الانكباب على تفاصيل وجهها، وغالبًا لاحظتْ تركيزه معها، فرمقته بنظرة مستغربة في منتصف حديثها مع الحاج.. كانت تشكو إليه حيرتها وعجزها تجاه حبس زوجها، رغم غضبها منه لأنه تاجر في هذا «الهِباب»، وأقسمتْ أغلظ الأيمان أنها لم تكن تعلم شيئًا عن تجارته النجسة.. إلا أنها لا تستطيع أن تتخلى عنه، وعرضتْ على الحاج أن يساهم في نفقات المحامي وأي شيء يتطلبه الأمر لإخراج زوجها من السجن.. وعدها الحاج أنه لن يتخلى عنه رغم عصيانه، فلا يصح أن يُسجن أحد رجال «الغُنيمي» بعد ما بذله كل هذه السنين ليحافظ عليهم بعيدًا عن أي صِدام مع الحكومة.

ثم أضاف بنبرة يشوبها الغيظ رغم هدوئها، وهو يداعب وجنتي «ورد» التي وقفت بجواره تتأمله باسمة:

– بس ده ما يمنعش إني هحاسبه يا «سكينة» لما يطلع.. أنتِ عارفة كويس إن ما فيش غلط ببلاش عندي.

فردت «سكينة» وهي تومئ برأسها إلى أسفل:

– كلنا زي عيالك يا حاج.. حقك تعمل فيه اللي أنت عايزه..

ثم أضافت قبل أن تتطلع إليه برجاء وتهمس ودموعها تطفر من عينيها:

– بس هو يطلع.. وحياة حبيبك النبي اللي زورت عتبته ما تخليه يطوِّل في غيبته جوه..

ثم اقتربت من «ورد» وأمسكت بيديها متوسلة وهي ترجوها:

– وغلاوة الحاج عندك يا ست «ورد»، والنبي تدعي له يا بركة يا أم قلب أبيض أنتِ.. وتدعي لي معاه.

ربتت «ورد» على كفي «سكينة» برفق وابتسمت، ورفعتْ رأسها إلى أعلى، ولم تنطق بشيء، فقط اكتفتْ بإطالة النظر إلى السماء، ثم رفعتْ كفيها إلى شفتيها، وقبّلتهما في حنو وهي تمسح عليهما.. فأجهشت «سكينة» فجأة بالبكاء، ويديها عند وجه «ورد» الباسمة الناظرة إليها، بكاءً محسورًا كأنه أخيرًا وَجَدَ لنفسه متنفسًا ليخرج، كأن شفتي «ورد» اللتين انطبعتها على كفيها فتحتْ لروحها الباب أخيرًا لتفيض الدموع.

وقف «الصمطي» مستندًا على أحد الحوائط القريبة يراقب المشهد في غير مبالاة، كأنه شاهد مثله كثيرًا قبل هذا.. على عكس الضيفين اللذين وقفا مشدوهين مشدودين لما يجري.. بينما الحاج يراقب عن قُرب مبتسمًا في رضا.

مسحت «ورد» بيديها على رأس «سكينة» التي سكنت نهنهاتها أخيرًا، وتنفست بعمق وهي تمسح وجهها بطرف عباءتها، وتشكر «ورد» بحرارة على «بركاتها» التي أزاحت الهَم الثقيل الذي كان جاثمًا

فوق صدرها.. وانصرفوا جميعًا، وسارتْ «سكينة» في اتجاه آخر غير اتجاههم، إلا أن قلب «علي» وعينيه التفتوا نحوها كثيرًا.. قبل أن يتشجع ويقترب من الحاج، ويقول بصوت مسموع:

- معلش يا حاج تأذن لي في السؤال؟

فقال الحاج مُبتسمًا وهو ينظر أمامه:

- وماله! اسأل يا أفندينا.

فانشرحت ملامح «علي» وقال بصوت أكثر خفوتًا:

- هي متجوزاه عن حب قوي كده؟ أصل شكلها قلبها محروق عليه جامد يعني..

ضحك الحاج ضحكة قصيرة، ورد عليه وهو يُعدِّل من وضع بنطاله:

- لا عن حب ولا يحزنون.. الحريم هنا غلابة ما يفهموش في كلام الحب والغرام، اتجوزته زي أي جوازة، بس ستاتنا هنا غلابة، غلابة قوي، بيتشعلقوا في توب رجالتهم حتى لو كانوا ميسووش مليم في سوق الرجالة.. زي الخسيس جوزها.

غاص «علي» في أفكاره، وشعر بمرارة مفاجئة تُفعم روحه، وقال لنَفْسه أنه لو نال ربع هذا الاهتمام، لو أحسّ بعُشر هذه اللهفة، التي لم ينلها حتى وهو يفعل كل ما أراده الآخرون منه، ربما لما كانت حياته على شكلها الحالي أبدًا.

لم يكن يعلم أن على الجهة الأخرى في حي «الزمالك» الهادئ، تتمدد زوجته في غرفتها، بعد أن أحكمت إغلاق الباب عليها، تبكي في صمت مكسور كعادتها، دون صوت، دون تسارع في أنفاسها، منذ طفولتها تعلمت أن تبكي بهذه الصورة كي لا تثير حزن أمها ولا حفيظة أبيها وغضبه –وقد كان مستعدًا للغضب على أتفه الأسباب– فمنذ دقائق أغلقتِ الخط مع صديقتها «مريم»، وطمأنتها أنها بخير، رغم غياب زوجها عن الصورة تمامًا إلا من اتصالاته بأمها.. أخبرتها أنها لا تعير الموضوع اهتمامًا وقالت بكبرياء مشروخ:

- هو حر.. خليه يبعد روحه كمان وكمان عنّي.

قالتها لها بعزة نفس ظاهرة، وقلب مكسور، ونَفْس حائرة بين التمسُّك بكرامتها، وعدم الاتصال به، وبين صوت داخلها يهمس لها مثيرًا للفزع في كل موضع من روحها أن زوجها الذي تعاملتْ مع وجوده في حياتها كشيء مُسلَّم به، وأنه لن يرحل مهما فعلتْ ومهما حدث، قد بدأ أولى خطوات الرحيل عنها بالفعل.. وهذا الصمت ما هو إلا مُقدمة لهجرها تمامًا، وإلقائها خلف ظهره.

على الجهة الأخرى، تقدَّم «الصمطي» الموكب الصغير السائر فجأة، ليدفع بابًا حديديًّا كبيرًا، ويدلف قبل الحاج وابنته، ليضيء مصباح المَدخل.. رفع «علي» و«خالد» رأسيهما مطالعين بيت الحاج، صحيح أنه أفضل حالًا من معظم البيوت التي تحاوطه، من حيث متانة البناء كما يبدو، إلا أنه عادي أيضًا، لا شيء فيه يميزه، سوى واجهته الكبيرة التي تشير لاتساع مساحته.

أثناء صعودهم على الدرج، شرح «الصمطي» لـ «علي» همسًا أن البيت مُكوَّن من ثلاث طوابق، الطابق الأول تسكنه أخت الحاج «الحاجة عايدة» وزوجها «أبو فارس» وأولادهما، والثاني يسكنه «الصمطي» نَفْسه وحيدًا، والثالث يسكنه الحاج برفقة ابنته، التي تتولى عمتها أمور خدمتها وتتواجد بصُحبتها أكثر مما تتواجد في شقتها، خصوصًا بعد أن تزوج معظم أولادها التسعة.

توقع «خالد» أن يجدوا مظاهر للثراء أو البهرج، أو حتى الذوق الشعبي المبالغ فيه الذي يظهر عادة في اختيار الأثاث والألوان، إلا أنه فوجئ بشقة بسيطة في أثاثها من ناحية الشكل، إلا أن ترتيب الأثاث وتناسق ألوانه، والمزج بين الذوق الكلاسيكي فيه من عصور مختلفة، كاستخدام الأرابيسك في مواضع عدة، والاستعانة بطراز «القعدة العربي» في الصالة الفسيحة المنقسمة إلى جزئين، كل هذا يدل على ذوق يعرف كيف يلمس الجمال في ما يرى.

دخلتْ «ورد» إلى غُرفتها، بعد أن استقبلتها الحاجة «عايدة» محتضنة إياها في شوق كأنها لم ترها منذ أيام، ثم اختفت الحاجة بصحبة الابنة بعد أن حيّت الضيوف بعبارات مُرحبة هادئة.. دعاهم الحاج إلى دخول مكتبه الفسيح، الذي فُرش بما بدا أنها قطع أثاث تنتمي للأنتيكات، ذوق أوربي رفيع، وألوان متناسقة يجمعها اللون العسلي، حتى السجادة لونها يناسب ما حولها.. جلسوا متفرقين على مقاعد خشبية مُبطنة مريحة، نُقشت على أذرعها عبارات لاتينية لم يستطع «علي» أن يفك رموزها، إلا أنه ظل يرمق ما حوله بانبهار.

جلس الحاج خلف مكتبه، بعد أن أمر «الصمطي» بإعداد القهوة للضيوف.. قبل أن يفتح أحد الأدراج، ويُخرج منه لابتوب أنيق باهظ الثمن، قام بتشغيله بضغطة زر، وعبث قليلًا بمفاتيحه، لينبعث صوت «سيد مكاوي» من سماعاته مُدندنًا بمقدمة «ما تسبنيش أنا وحدي».. تنحنح «خالد» في ريبة، فقد بدأ يشعر أنه يتعامل معهم باستخفاف، وقال بصوت جاهد كي يخرج ثابتًا:

- لو الوقت مش مناسب للكلام يا حاج، ممكن نستأذن ونيجي في وقت تاني.

رجع الحاج بظهره إلى الخلف ورمقه بثبات، وقال له بملامح جامدة:

- وأنا لو مش فاضي للكلام معاك، هطلّعك بيتي ليه؟

قبل أن يُردف مبتسمًا فجأة:

- ولا أنت ما بتحبش سيد مكاوي ولا إيه؟!

وضحك ضحكته القصيرة المُعتادة.. وفي تلك اللحظة، ركل «علي» ساق «خالد» بطرف حذائه، بمنتهى الغل، ونظر إليه في عينيه فيما معناه أن يصمت.. قبل أن يلتفت إلى الحاج ويُثني على ذوقه، فقد كان «علي» مُحبًا منذ زمن بالفعل لأغاني «سيد مكاوي»، تحديدًا هذا المقطع الذي يدندنه الآن:

وحياتك يا حبيبي.. ريَّح قلبي معاك..

رمق الحاج «عبده» ضيفه «علي» بنظرة إعجاب مبتسمًا، فقد راقتْ له طريقته وتوسّم في شخصيته حُسن الفهم، ثم التفت إلى «خالد» وقد زالتْ عن وجهه الابتسامة، واحتفظ بنظرة محايدة وهو يطلب منه أن يحكي له ما أتى بسببه إليه.

دخل «الصمطي» حاملًا القهوة، بينما «خالد» يكاد أن ينتهي من قصته، التي حاول أن يحكيها بأكبر قدر ممكن من الاختصار، فقد كان حكيه للتفاصيل ثقيلًا عليه، ويُشعره بالضآلة والحرج.

رفع الحاج فنجان القهوة إلى أنفه وتشممه، ودلّت ملامح وجهه عن الإعجاب، ثم قال موجهًا حديثه إلى الضيفين:

– طيب قبل أي كلام.. محتاج بطايقكم خمس دقايق..

أخرج «علي» بطاقته ومدّها إلى «الصمطي» دون استفسارات، على عكس «خالد» الذي ظل ممسكًا بمحفظته الجلدية، ناقلًا بصره بين الحاج «عبده» و«علي» وكأنه يرغب في سماع إجابة سؤاله دون أن ينطقه.. فقال الحاج بنفاد صبر حاول أن يكتمه بهدوئه المعتاد:

– عايز أتأكد من شخصياتكم يا سي الأستاذ، أنا راجل بيعدي عليا اليمين والشمال، والشمال أكتر بكتير.. أنت حكيت حكايتك وأنا سمعتك، بس قبل ما نقول أي جديد لازم أتأكد إني قاعد مع الناس الصح الأول.. وعمومًا ما تقلقش، هيتكشف عليها قدام عينيك..

ثم أمر «الصمطي» أن يستدعي «جيلاتينة» بسرعة ليأتيهم حالًا.. وخلال أقل من دقيقتين دق باب الشقة، وذهب «الصمطي» ليفتح الباب لـ «جيلاتينة» الذي دخل بخطوات متلاحقة وصافح الحاج بتبجيل واضح.. كان نحيلًا بدرجة ملفتة، وسرعان ما فهم المطلوب، والتقط البطاقتين من يد «الصمطي»، وبدأ فحصهما أسفل مصباح قوي وُضع فوق منضدة قُرب الحائط.. ثم أخرج هاتفًا من جيبه، وضغط على شاشته عدة مرات، قبل أن يرفعه بجوار أذنه محييًا المتحدث على الطرف الآخر:

- حضرة الأمين اللي عمره ما قصَّر معانا في واجب.

وبدأ يُملي عليه سريعًا الرقمين القوميين الخاصين بالضيفيين، ثم انتظر قليلًا، وبدأ يتفاعل مع حديث الطرف الآخر مُبديًا الرضا وهو يبتسم:

- تمام.. أيوه! والتاني؟ تمام.. تسلم يا زعيم المعلومات.

أعاد البطاقتين إلى صاحبيها، وقال «جيلاتينة» للحاج بصوت مسموع للجميع:

– البطاقتين أصلي يا حاج.. والرقمين نُضاف، لا عليهم أحكام ولا أي خربوش.

ابتسم الحاج في رضا، واطمأن من «جيلاتينة» على صحة والدته، ونبّه عليه أن يُحضِر لها علاجها إذا نفد، وإلا سيكسر رقبته بيده لو قصَّر في حقها، ثم صرَفه وعاد بكامل انتباهه إلى الضيفين، وعلى خلفية من صوت الشيخ «سيد مكاوي»، وجه إلى «خالد» سؤاله الأول:

- طيب عشان نبقى على نور بس.. دلوقتي أنت قابلت اللي اسمه «عمر» ده بعد ما دخل وسط شلة الجورنالجية والكتّيبة بتاعتكوا، واتصاحبتوا بعد ما عمل معاك كام حركة جدعنة جامدين.. وهوب قام عارض عليك فكرة الشراكة في صالة الجيم.. تمام كده؟

أشار «خالد» برأسه مؤكدًا، و«علي» يتابع الحديث باهتمام بالغ.. ليتابع الحاج أسئلته:

- طيب هو اشمعنى مشروع الجيم يعني؟ ليه ما قالكش يلا نفتح محل عطارة مثلًا؟! مطبعة؟ أي حاجة!

قال «خالد» بنظرات زائغة، وذهن مشوش، فقد بدأت أعراض الاحتياج للكحول تضغط على أعصابه:

- قال لي إنه كان فاتح جيم في إسكندرية، وبعدين قفله ونزل ع القاهرة عشان كان عايز ينقل حياته هنا.. فكان عنده خبرة كويسة بمشروع الجيم وإزاي يمشيه.. وبصراحة هو كان بيفهم فعلًا، ونجحنا.

حكَّ الحاج شاربه، ثم سأله:

- طيب ما سألتوش اسم الجيم اللي كان فاتحه في إسكندرية إيه؟ أو كان فاتحه فين؟

هزَّ «خالد» رأسه نافيًا، وصُداع الكحول يتصاعد في رأسه.. فقام الحاج من خلف مكتبه، وجلس في مواجهتهما على كرسي أقرب، وقال وهو ينظر في عيني «خالد» مباشرة:

- يعني أنت قابلت واحد ع القهوة، اتجدعن معاك فاتصاحبت عليه، قُمت مشاركة بمليون جنيه في مشروع، وأنت ما تعرفش عن حكايته اللي فاتت أي حاجة يا أستاذ «خالد»؟

اكتفى «خالد» بالصمت، وابتلع إحساسه بالخزي في صمت، فهذا ما حدث بالفعل، لم يُفتِّش وراء صديقه وشريكه، آمن له، ورأى فيه شهامة في مواقف عِدّة، حتى إنه أقرضه المال أكثر من مرة دون أن يطلب، فقط بمجرد شعوره أنه يحتاج إليه، كان يُعطيه أكثر مما يكفيه، ولا يُلِح طالبًا إياه أن يرد ما اقترضه.

همس الحاج مبتسمًا بمكر طفولي:

- ده أنت طيب قوي يا أبويا! مش عارف ليه الواحد ما بيطلعلوش الناس الطيبين اللي زيك كده.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يستمع فيها الحاج إلى حكاية مُشابهة، فقد بدت له حكاية نصب تقليدية رغم تعقيدها الظاهري، وشخصية «عمر» التي سمع حكايتها تشبه حكايات آلاف النصّابين الذين قابل ضحاياهم على مدار السنين الماضية.. ذات السِمات والملامح، ما بين الإفراط في الكرم والشهامة وصدق «الجدعنة» في فترة نصب الشِباك حول الفريسة، حتى يسيطر النصاب على ضحيته نفسيًّا تمامًا، ثم تحدث الشراكة، ثم يبدأ المكسب في التدفُّق، ومعها علاقة صداقتهما تزداد متانة وقوة، ثم فجأة! يختفي معه كل شيء، ماله ومال شريكه، ولو استطاع أن يسرق أعضاءه ليبيعها، لفعل هذا.

قال «علي» محاولًا تهدئة الأجواء المتوترة:

- هو كان سابك الدور علينا قوي يا حاج.. واد شكله حلو، ولسانه أحلى، ويبان ابن ناس ومتعلم.

هزّ الحاج رأسه في تفهُّم، كأنه يفهم ما يسمع جيدًا، وهو بالفعل يفهمه، فتشجع «خالد» مدافعًا عن نَفْسه:

– طيب قولوا لي كنت أشك فيه إزاي! واحد يبان نضيف ومتعلّم كويس، وكان معاه نُص مليون جنيه وبيقول لي تعالى شاركني في مشروع، والشغل نَفْسه بيِّن إنه فاهم بيعمل إيه، وفي فترة قصيرة الفرع اللي فتحناه بقى فروع.. أخوّنه ليه وإزاي! هشك في واحد شكله ابن ناس وبيتكلم أربع ولا خمس لغات!

استوقفه الحاج بإشارة من يده، وسأله باهتمام:

– إيه موضوع اللغات ده؟ فهِّمني كده!

استغرب «خالد» اهتمام الحاج المفاجئ، فشرح له –وقد غمرته الريبة وتزايد الصُداع– أنه شاهده بنفسه أكثر من مرة يتحدث مع زبائن ألمان وروسيين وإنجليز ممن بدؤوا يتوافدون على أحدث فروع الجيم، الذي افتتحوه في حي يسكنه العديد من الأجانب العاملين في مصر.

هز الحاج رأسه مبتسمًا في رضا، كأنه عثر على شيء كان يتوقعه، ثم قام وجلس خلف المكتب، ولبس عوينات القراءة وأمسك ورقة وبدأ يدوِّن فيها سطورًا، ثم وعدهم بأنه سيتصل بهم قريبًا حاملًا خبرًا جيدًا.. همَّ الضيفان بانصراف، فأوقفهما الحاج بإشارة من يده وهو مبتسم في استغراب، وسأل «خالد»:

– إيه يا أستاذ «خالد»! ما تكلمناش في الأتعاب؟

قلَّب «خالد» بصره بين الحاج و«الصمطي»، الذي جلس في الجهة الأخرى من الغرفة صامتًا، ثم قال وهو يوجه حديثه لـ «الصمطي»:

– ما فهمتنيش موضوع الأتعاب ده!

منذ تعرُّضه لما ألمَّ به، سيطرت عليه حالة من التشكك في كل مَن حوله، أحسَّ أن الجميع يستهين به، ويرغب في خداعه، ولمَ لا؟ ألم تخدعه حبيبته وهربت! ألم يخسر ماله كله تقريبًا بطريقة تبدو ساذجة بل ومضحكة من شدة البساطة!

تصدَّر «علي» المشهد في مقابل الحاج، وقال بصوت هادئ:

– طبعًا يا حاج ده حقك.. ربنا يكرمك إنك من الأصل قبلت تساعدنا، طلباتك كلها أنا مُلزَم بيها يا حاج، في رقبتي.

رمق الحاج «عبده» وجه «علي» وهو يتحدث، كأنه يبحث داخله عن كذب أو تزييف، فلم يجده، وابتسم وهز رأسه في إعجاب، فقد كان في داخله يُبجّل الصداقة ويعتبرها كنز الحياة الحقيقي، إذا صدق.. اعتدل في جلسته، وأكمل حديثه:

– بس من حق صاحب الحق يفهم الأتعاب هتبقى إيه وليه.. الأتعاب 10 % من قيمة فلوسك، وما باخدش مليم قبل ما أرجع لك حقك كامل في إيدك.. لو أنت كنت جاي لي من سكة برّاني كنت هقول لك

20%، بس أنت جاي عن طريق «أحمد».. صحيح هو عيل معفن، بس له غلاوة عندي..

ابتسم «الصمطي» متقبلًا الإطراء في فخر، قبل أن يكمل الحاج حديثه:

- موضوعك مش سهل يا أستاذ.. أنت اتسرقت قانوني، بعقد بيع سليم وإمضتك عليه منوّرة.. لا معاك وصل أمانة ولا شيك.. شُغلتك دي هيلزمها مصاريف ورجالة، ويمكن سفر كمان.. الـ 10 % دول يا دوب هيغطوا الليلة.. فهمت؟

نظر «خالد» نظرة جانبية إلى «علي» الذي أومأ له بعينيه موافقًا في حسم، فقبل «خالد» عرض الحاج على مضض، رغم تشككه، إلا أنه لم يكن قادرًا على فُقدان دعم «علي» له في مثل هذا التوقيت، فهو يدرك جيدًا أنه لا يمتلك شخصًا حقيقيًّا غيره الآن.

طلب الحاج منهم أن يرسلوا صورة شخصية لـ «عمر»، وصورة رقمه القومي إلى هاتف «الصمطي»، فهو في حاجة إليها ليبحث عن الخيط الذي يدله عليه.. ثم صافحهما مودعًا، قبل أن يهمس إلى «خالد» وقد أشار إليه بالاقتراب:

- احلق دقنك يا أستاذ، وروّق على حالك شوية، الدنيا متفاتة.. وما تقلقش، حقك دلوقتي عند «عبده الغنيمي».. ومن قبله ربنا.

غادرا البيت والمنطقة كلها في حراسة «الصمطي»، قُبيل الفجر بقليل، وقد انتعشت نفس الزائرين بأمل لم يكن موجودًا قبل هذه الليلة الطويلة.

15

حاول «علي» البقاء بصُحبة «خالد» أطول فترة ممكنة خلال الأسبوع التالي للقائهم بالحاج «عبده»، لم يكن يحتاج إلى أدلة كثيرة ليدرك أن صديقه –أو ما تبقى منه– أصبح مُحطمًا تمامًا، وكمعظم الأشخاص المُحطمين، فإن عقله قد يقوده إلى اقتراف الكثير من الحماقات، خاصةً في سعيه المجنون للعثور على «سالي».. حلاقة لحيته وتهذيب شعره، وعودة شكله إلى صورة آدمية، لا تعني أنه صار فجأة إنسانًا متماسكًا، حتى وإن ادّعى عكس هذا، حتى لو أبت شخصيته المستأسدة ظاهريًّا الاعتراف بالانكسار، فلقد عرفه منذ يوم لقائهما الأول أنه هش نفسيًّا للغاية، وإن أخفى هذا بكثير من الرتوش الخارجية.. لذا فقد صبّ جام اهتمامه، وغضبه، وحسرته، على ما فعلته «سالي» به، ولم يهتم كثيرًا بخسارة ماله، ولا بخيانة صديقه وشريكه، فقد أقنعه عقله منذ زمن أنه ما مِن أحد يحبه مثلما تفعل «سالي»، لذلك تقبّلها بكل ما فيها.. حتى إنه تقبّل إدمانها للهيروين، بعد أن اكتشفه قبل فراقها له بعدة أشهر، بعد أن وعدته أنها ستقلع عن تعاطيه في أقرب فرصة ممكنة.

كاد «علي» أن يفقد أعصابه وهو يستمع إلى هذا الخبر الجديد بالنسبة إليه، إلا أنه حاول السيطرة بكل ما يملك من قوة على رباطة جأشه، وقال ضاغطًا على الكوب الزجاجي بين أصابعه حتى كاد يتهشم:

– يعني أنت كنت عارف إنها مدمنة، وروحت اشتريت لها عربية وكتبتها باسمها؟

اختنق صوت «خالد»، فقال شيئًا مُبهمًا لم يسمعه «علي»، ليستفسر منه بعصبية عما يقول، فيرد عليه بصوت خرج أقل اختناقًا وهو ينظر أمامه مباشرة:

– كنت فاكر إني لما أعملها حاجة نفسها فيها ممكن تتحسن، وتبطل القطران اللي كانت بتاخده ده.

ابتسم «علي» بعصبية وهز رأسه يمينًا ويسارًا، وأخذ يرمق شلة المعاشات إياها، الثلاثي الذي اعتاد مراقبته منذ سنين، ها هم جالسون بداخل المقهى يلعبون الطاولة في سلام وتناغم كعادتهم: اثنان يخوضان غمار المنافسة والثالث يشاهد المباراة، ويلقي تعليقات حماسية، وقد كان أكثرهم صخبًا العجوز الوسيم ذا الخصلات الفضية المتطايرة في كل اتجاه دائمًا.

لقد استحوذت عليه «سالي» تمامًا –هذا ما أدركه «علي» الآن– كان يعرف أنها سيطرت عليه بقدر ما، إلا أنه لم يتخيل أن صديقه وقع ضحية لعلاقة مرضية إلى هذا الحد، لقد جعله الحب ذليلًا جديدًا في قائمة من كسرهم الحب، وجعلهم يرتكبون الحماقات التي سيقضون معظم ما تبقى من حياتهم يحاولون التوقف عن لوم أنفسهم بسببها.

تلاعبتْ به بخفة، كما يتلاعب لاعب الورق ببطاقات اللعب، شكّلت أفكاره بمهارة بين أصابعها الرقيقة التي تعزف العود.. لعبت على كل نقاط ضعفه، أشعرته بالأمان، بل أقنعته أنها أمانه الوحيد، وملاذه الآمن الأوحد الذي يتقبله على حقيقته، يعرف كيف تُلعب هذه الألعاب القذرة، لا بد أنها أخبرته كم هو سيئ، إلا أنها تتقبله على سوئه لأنها تحبه، تتقبله كما تتقبل قطًّا أجرب ربيته في بيتك، يؤذيك

لكنك تحبه.. أمعنتْ في تحطيمه، في إشعاره كم هو سيئ لا يستحق أن يُحَب، وتمكنت من السيطرة عليه شيئًا فشيئًا، واستغلاله بكل الأشكال الممكنة، وهي تقنعه أنها مَن يضحي هنا.

حاول أن يلين قليلًا مع صديقه، فقد لا يحتمل عُنفًا تجاهه وهو في حالته هذه، إلا أن خاطرًا مُزعجًا ظلّ يُلح على ذهن «علي» يخبره أن «خالد» لا يبحث عنها رغبة في الانتقام كما كان يقول منذ عدة دقائق، بل إنه يود استعادتها مرة أخرى إليه، لم يود أن يردَّ لها الأذى كما يخبره، بل ينتظر منها اعتذارًا، أو تفسيرًا، أي شيء يُسكِّن به ألم كرامته، وسيردها إلى حياته فورًا.

رنّ هاتف «خالد»، رد على اتصال أمه به، كان يحدثها في نفاد صبر، ويرغب في إغلاق المكالمة سريعًا، كعادته يُداري ضعفه بالمزيد من الاستئساد، خصوصًا على الأقربين منه، خاصة أمه المريضة التي لا حول لها ولا قوة، لكنها تمتلك قلبًا يُخبرها أن ابنها المدلل يمر بأيام صعبة في العاصمة المزدحمة.. حاولت أن تُقنِعه أن تأتي لتمكث معه قليلًا في القاهرة، إلا أنه رفض وتحجج بأنه مسافر إلى «الغردقة» خلال يومين لأمور تخص العمل، ولَانَ قليلًا وهو يَعِدُها أنه سيذهب لزيارتها في أقرب وقت ممكن.

رمقه «علي» بتعاطف شديد، وأقنع نَفْسه أنه يجب أن يقلل حدته مع صديقه، مَن قال إن ضعفنا الإنساني لا يستحق التعاطف؟! جميعنا نضعف، في مواقع مختلفة، تختلف في تفاصيلها الظاهرية وتتلاقى في طبيعتنا الإنسانية الضعيفة المتكبرة بالفطرة.

فرد ساقيه أمامه وهو يفكر أنه هو نفْسه أكبر مثال على هذا الضعف، أحيانًا عندما يستعيد ملكات الكاتب، ومشروع الروائي الذي دفنه بيديه جنينًا منذ سنين، ويحاول أن يحلل حياته كـ «شخصية روائية» كما وصفته «سما» يومًا ما، فإنه يجد نَفسه مجموعة من نقاط الضعف التي تحاول الاستتار عن أعين الناس.. وهل هناك علامة أعظم على الضعف من أنه يجلس هنا، على ذات الطاولة تقريبًا، منذ سنوات لا يتذكر كم عددها بالضبط الآن! يتساءل في نفسه هل الخيانة تعني بالضرورة أن تسرق حبيبتك سيارتك وتهرب! أليس هناك أشكال كثيرة لغدر أحبابنا؟! عندما يدفعوننا عن قصد إلى التخلي عن أحلامنا وتغيير المسارات التي نتمناها، أليست هذه خيانة؟! عندما يتعمدون إيذاء مشاعرنا والقسوة علينا رغم رحمتنا بهم، أليس هذا نوع من الغدر؟! عندما نمنحهم كل شيء ونتنازل عن كل الأمنيات لأجلهم ونسير في الطرق التي اختاروها هم بأنفسهم، ثم يُقال لنا إننا لم نقدم شيئًا وأننا لم نكن لهم ظهرًا، أليس هذا ظلم عظيم؟! حين تضيع أيامنا وتتساقط أمنياتنا ثم نكتشف أن كل هذا كان هباءً بلا ثمن، أليس ذلك نوع من السرقة؟! هل السرقة تكون فقط للسيارات والأموال؟! أليس سرقة الأحلام والأيام وبسمة الشفاه وراحة النفس أشد فداحة من سرقة الممتلكات؟! كانت الأسئلة تسحقه من داخله، يريد أن يهرب منها ولا يستطيع، ربما هو لا يريد أن يهرب ولا يستطيع! الروائي بداخله يجعله يحفر جراحه بيده وينبش حزنه بأظافره، ويتخيل ويتخيل.. فيزداد ألمه بما حدث وبما لم يحدث! وحينها تذكر وجه والده الذي زرع فيه بذرة الكاتب منذ صغره، هو من هداه إلى طريق القراءة، وهو الآن يحصد ثمارها الأليمة المريرة، أخذ وجه والده يتشكل في خياله وهو يراقبه من فجوة شباك المقهى المُطل

على الممر الذي يجلس فيه، فسعدت نفسه بهذه الرؤية المتخيلة، وابتسم رغمًا عنه، حتى إنه ضحك في النهاية بصوت مسموع.. فالتفت إليه «خالد»، وسأله عن سبب ضحكه، فاكتفى «علي» بالصمت، فهو لن يخبر صديقه الذي يمر بأكبر صدمات حياته بهذا العبث الذي يدور في ذهنه الآن.

كم تمنى «عليّ» ألا يرث من أبيه حب الكتب، ليته لم يرث عقله، وورث بدلًا عنه وسامته وشعره الناعم المتطاير في تناسق كنجوم السينما.

رغم عدالة خالقها، إلا أن هذه الحياة ليس عادلة إطلاقًا.

16

بدأت «سما» تؤقلم نَفْسها على الوحدة. هذا الجزء المُظلم في عقلها أخذ يتوسع ويسيطر على المشهد بقوة، يخبرها بإلحاح أن «علي» تركها إلى الأبد، ملّ منها ومن شخصيتها التي لم يحبها أحد سوى أمها، أمها الضعيفة التي يبدو أنها أحبتها بفعل غريزة الأمومة وللضعف المتأصل فيها، أحبتها حُبًّا أورثها فكرة راقدة هناك في خلفية وعيها تُخبرها أن الحب مرتبط بالضعف، كي تصبح قادرة على الحب، يجب أن تصير مثل أمها، وهذا ما لم تتخيل أنها يمكن أن تحتمله مهما جرى، كانت تحب أمها، لكنها ترى فيها كل ما يُنفّرها من ضعف الأنثى، الضعف الذي استغله أبوها بأقذر الأشكال ونكّل بها.

كادتْ تكمل ثلاثة أسابيع دون زوجها، بدأت تعتاد النوم وحيدة في فراشها البارد القديم.. حاولتْ أن تستدعي كل ما تتذكره مما يُعينها على تأكيد فكرة أن «علي» لم يكن يومًا الرجل الذي حلمت أن تُكمل حياتها معه، لم تجد لنَفسها مخرجًا من موقف الضعف الذي وُضعت فيه إلا بمحاولة يائسة لزرع النفور منه داخلها، إلا أن هذا لم يساعدها، بل زادها حنينًا إليه، حنينًا لم تستطع أن تُخمده بالاستغراق في المزيد والمزيد من العمل، حتى إنها عرضتْ على مُديرها أن تتحمل المزيد من أعباء التكاليف، لا تريد أن تنصرف في مواعيد العمل المُعتادة، مستعدة للسهر دون التمسُّك بزيادة محددة في راتبها.. فهم مديرها الأمر أنها تحاول استجلاب رضاه لتؤكد استحقاقها لفُرصة العمل في فرع الشركة بـ «دبي»، استدعاها في أحد الأيام، وأخبرها بابتسامة مشجعة أن فرصتها تنتظرها، وحتمًا ستحقق نجاحًا مُبهرًا هناك يدفع بها إلى الترقي، ربما تتفوق عليه خلال أربع أو خمس سنوات، إلا أنه عاد وأكد عليها أن الترشيح سيكون خلال شهر ونصف من الآن، وخلال هذه المدة لا بد أن تحسم أمرها، وتُرتب الموضوع مع زوجها.

خرجتْ يومها من مكتبه حاملة المزيد من الغيظ تجاه زوجها، ثم لعنت الرجال وكِبرهم وغباءهم وقدرتهم العجيبة على إهدار الفُرص، ودخلت حمام الشركة، لتركل صفيحة القمامة المعدنية بكل قوة، حتى كادت أن تكسر قدمها.

لا بد لهذا الوضع المُعلَّق أن ينتهي، وإلا ستفقد ما تبقى من عقلها.. هكذا أخبرت نَفْسها في تصميم، وهي خارجة من الحمام متظاهرة بهدوء مصطنع لا يمكن أن يكتمل يوم العمل من دونه.

ومثلها، أغرق «علي» نفسه في المزيد من العمل، لم يكن يمتلك بينه وبين ذاته مبررًا منطقيًّا لهذا الانغماس في عمل يعرف جيدًا في داخله أنه لا يحبه ولم يختره إلا للمستوى المادي الذي يضمنه له، صحيح أنه بارع فيه، لكن مَن قال إن البراعة في عمل ما تشترط في صاحبها أن يكون مُحبًّا لما يفعل؟ لم يكن يتقبل نَفْسه إلا عندما يشعر بأنه يُنجز ما يجب عليه إنجازه، حتى لو لم يكن مقتنعًا بضرورة هذا الإنجاز من الأساس، للأسف يبدو أن البعض يقضون حياتهم أسرى لهاجس الإنجاز اللعين هذا، خوفًا من تأنيب ضمائرهم وإحساسهم بانعدام القيمة.

في داخله أحسّ أن علاقته بـ «سما» ستستقر بشكل ما، لم يتخيل أن فراقًا بينه وبينها يمكن أن يحدث، لقد كانت هنا منذ سنوات، ولا يتصور أبدًا أن سنوات قادمة يمكن أن تأتي خالية منها.. لم يكن

يتصرف بغرابة، معظمنا ننساق خلف الهاجس نفسه، نضمن البشر والأشياء، نتعامل مع وجودها باعتياد الأبدية الوهمي، ناسين أن الأشياء لا تبقى من تلقاء نَفْسها، والعلاقات لا تستمر إلا ببذل الجُهد من أجلها.. كان يريدها في حياته، لكنه لم يكن مُستعدًا لتقديم التنازلات هذه المرة.. لم يبدأ الأمر أبدًا بهذا الشجار الأخير، الذي لم يكن إلا الرأس الصغير لجبل الجليد لكن تحته من المشاكل والتراكمات والخلافات غير المحلولة، التي نحاول تجاهلها في خضم زحام حياتنا اليومية، نظن أن الضجيج المُحيط بنا كافٍ لإخفائها، وفعلًا قد تتوارى عن عيوننا مؤقتًا، إلا أنها تظل باقية هناك في نفوسنا، تنتظر فقط لحظة الانفجار.

تجاهل إلحاحات أمه على وجوب ذهابه إلى زوجته وإعادتها إلى بيته، تجاهلها دون نقاش أو صدام متجنبًا إياها كعادته، كما عاش مختبئًا منها، ومن أبيه، لسنوات في غرفته الموصدة عليه دائمًا.. الحجرة التي تعزله عما لا يريد أن يخوض فيه، وتسمح له بخلق الحياة الموازية التي اعتاد أن يحياها بعيدًا عن سُلطة أمه ورغبتها في السيطرة على مفاصل حياته وتوجيهها بالشكل الذي ترى أن الأمور يجب أن تسير عليه.

التفت «علي» نحو «رامي» وسأله عن آخر مُستجدات ما طلب منه أن ينفذه بخصوص الحملة الدعائية التي يعدون لها خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، فطمأنه أن كل شيء جاهز كما طلب، والرسومات التوضيحية قد انتهى منها بالشكل الذي حدده له.. ثم قال ممازحًا وهو يتحسس بطنه في تلذذ:

– والله يا ابني لولا إني عارف إنك مسحول في حياتك إزاي الفترة دي، كنت سألتك أنت جايب منين التركيز ده كله في كل تفصيلة في الشغل.. بستغربك بالصراحة، ولا أستغرب ليه! ما أنا من يوم ما عرفتك وأنت كده..

ثم جلس على المكتب، فأزاح «علي» اللابتوب ليفسح لمؤخرة «رامي» الضخمة مُتسعًا، قبل أن يكمل كلامه ممازحًا:

– تصدق شكلك كده في دماغي من أول يوم اتقابلنا فيه.. يا قاعد ماسك كتاب، ومعاك ورقة وقلم بتكتب ملاحظات كأنك بتذاكر، يا نازل برقبتك ودماغك ع اللابتوب بتشتغل على حاجة.. فاكر موضوعك عن الروح الصوفية في أدب نجيب محفوظ؟

ابتسم «علي» وقد تذكر المقال الذي يقصده «رامي»، يتذكره بالطبع.. فلقد تطلب منه عشرة أيام من العمل المتواصل، قرأ فيها سبعة كتب، وأعاد قراءة عدة روايات لـ «نجيب محفوظ» كي يتأكد من دقة كل شيء.

أكمل «رامي» حديثه:

– له حق مدير التحرير بتاع الموقع ما يصدقش إنك ما كنتش متأخر في التسليم وبتشتغله إنك كنت شغّال بجد، هو فيه حد بيقعد يشتغل على موضوع 10 أيام يا عم! ده أنت لو ابن أخت «نجيب محفوظ» مش هتشتغل على موضوع يخصه بالذمة دي.

لم يكن الأمر مُتعلقًا بالضمير من عدمه، بقدر إحساس الواجب الذي يضغط على أعصابه عندما يهم بإنجاز شيء ما، حتى لو كان تافهًا، طالما بدأ تنفيذه فلا بد أن يحاول بذل كل ما يستطيع من أجل أن يخرج بالصورة المُثلى.

لمح «منار» منهمكة في حديث جاد مع أحد الموظفين قُرب إحدى زوايا المكتب، لها تقطيبة جادة ساحرة، التفتت تجاهه فجأة، فعاد برأسه تجاه «رامي» كأنه كان ينظر إليها بالصدفة، لم يعلم أنها ابتسمتْ نصف ابتسامة لإدراكها أن تركيزه معها ليس صدفة، صحيح أنها لا تضع تجاهه أي خطط جادة، لكن مَن قال إن إعجاب رجل بها لا يداعب غرورها الأنثوي؟ هذه الأشياء لازمة أحيانًا للفتاة كي تستمر حياتها، وتتحمل أعباءها وضغوطاتها.

قال لـ «رامي» بلهجة جادة:

– تخيل إن شغل الـ 10 أيام دول كان أخف على قلبي من شغل يوم واحد هنا! فيه فرق بردو لما تكون بتعمل حاجة مؤمن إن لها أهمية، حاجة بتسيب أثر جواك.. تخليك تحس إنك أحسن وأنت بتعملها حتى لو تعبان، بترضي حاجة فيك.. حاجة بتحبها.

ثم هجم بكفي يديه على وجه «رامي» وجذب خدّيه إلى الخارج بعنف وهو يقول مازحًا:

– زي ما بحب الخدود دي يااااا ربي!

أفلت «رامي» وجهه من بين يديه، ونزل من فوق المكتب وهو يسبه بصوت خفيض يحذر أن يعلو صوته رُغم غيظه.. عدَّل من وضع ملابسه سريعًا، وعاد «علي» إلى العمل على اللابتوب وعلى وجهه بقايا ابتسامة.

ابتسامة لم تدم طويلًا..

بعد ساعة جلسا – «علي» و«رامي»- بصُحبة «سند بيه» وسكرتيرته الخاصة، و«سعيد» بالطبع، في اجتماع مُغلق وعلى درجة من السرية بخصوص معلومات الحملة الإعلانية التي ستتولاها الشركة قريبًا لواحد من منتجات إنقاص الوزن، حملة رُبما هي الأضخم والأهم للشركة منذ إنشائها.. استعرض «رامي» الخطة بشكل تفصيلي من خلال استعراض خطوات الحملة، ومراحلها، والأهداف المرجوة، وتحليل دقيق استعان فيه بما أمدّه به «علي» من معلومات، والذي قام ليُكمل شرح الحملة من الناحية العملية بعيدًا عن الأرقام والتحليلات، والفلسفة القائمة عليها في جذب فئة مُعينة من سيدات المجتمعات العربية، وليس مصر فقط..

كانت عينا «سعيد» تطفح بالغيظ وهو يتابعه، رغم تمسكه بهدوء ظاهري، وقد أسعد هذا قلب «علي» كثيرًا، حتى إن شبح ابتسامة تسرَّب إلى شفتيه وهو يستفيض في الشرح، متابعًا أمارات الرضا على قسمات «سند بيه» الذي أخذ يتحسس السلسلة الفضية التي يرتديها ويهز رأسه مُتابعًا وموافقًا، حتى وصل إلى الجزء الذي يقترح فيه أن يتولى أحد «الإنفلونسرز» بشكل رئيسي مهمة التسويق من خلال

مواقع التواصل الاجتماعي، هنا جاء صوت «سعيد» مُعترضًا مقاطعًا حديثه، وهو يوجه حديثه إلى ولي نعمته:

- يا «سند بيه» ما ينفعش.. «يحيى الحاوي» ده عيل شايف نَفْسه وسعره دايمًا في العالي.. ده بالفلوس اللي هياخدها ممكن نعمل دعاية عند 10 غيره!

جلس «علي»، وحاول أن يتجنب النظر إلى غريمه، وركز نظراته على مالك الشركة، مُقنعًا إياه أن رغم طباع «يحيى» الصعبة في التعامل، والتي لا يُنكرها لأنه تعاون معه بالفعل بشكل مباشر منذ سنة كما يتذكرون بالطبع، إلا أنه الوحيد القادر على إحداث المردود الذي يريدونه، وإقناع العميل الذي يستهدفونه بالشكل المطلوب.

بدأ الشك يتسرب إلى نظرات البيه، التقط «سعيد» طرف الخيط، وبدأ يضغط ويُلِح على فكرة إمكانية توزيع الأمر على عدة أشخاص بدلًا من شخص واحد والمُخاطرة بالحملة اعتمادًا على شاب معروف باعتزازه بنَفْسه إلى حد جنون العظمة.. وقد كان يعرف جيدًا أن «سند» له قلب طفل رغم ثرائه ونجاحه في عمله، لذا لم يكن يطيق المستأسدين حتى لو كانت مصلحته معهم.

نظر «سند» مليًّا في عيني «علي»، وقال بلهجة من يُنهي النقاش:

- الخطة مُوفقة يا «علي».. فيما عدا جزئية «الحاوي» ده.. زي ما اقترح «سعيد»، تقسم دوره والميزانية بتاعته على 5 إنفلونسرز غيره، وتستبعده هو بره الموضوع خالص.. انطلقوا.

ثم ضرب المكتب بقوة بكف يده اليُمنى، حركته الطفولية المُعتادة منه، وقام مُنهيًا الاجتماع.. والتفت «سعيد» تجاه غريمه، ورمقه بنظرة تطفح كيدًا وفرحة بالانتصار.

لم يكن ينقص «علي» المزيد ليزداد مزاجه تعكرًا، فقد أحس بمرارة الدُنيا كلها تعتمل في حلقه، رغم بساطة الأمر، إلا أن هذا الانتصار المعنوي الذي حققه عليه مَن يعتبره أكثر البشر سماجة في مجرة درب التبانة، كان كفيلًا به.

رفض أن يرافق «رامي» الذي عرض عليه أن يوصله بسيارته لأقرب مكان لمنزل والدته، وأخبره أنه يريد أن يتمشى قليلًا، كعادته عندما يشعر بالغضب يملأ صدره، يمشي ويمشي حتى يُهلكه التعب، فينسى الغضب بإنهاك السير الطويل.

وأثناء سيره فوجئ باتصال من رقم لا يعرف صاحبه.. أمسك بالهاتف مجيبًا فوجد صوتًا عميقًا كاد أن ينساه، يقول كأنه كان بصُحبته أمس:

– ينفع تغيب علينا كده يا أفندينا؟ ده أنت حتى وحشت الست «ورد» وبتسأل عليك.

استجمع «علي» شتات ذهنه سريعًا، وأدرك أن مُحدثه هو الحاج «عبده» الذي يأس من أن يتصل به، على مدار أسبوعين تقريبًا. كان «علي» يلح في مراسلة «الصمطي» مُستفسرًا عن أي جديد، دون جدوى، فقط يطالبه بالصبر ويؤكد له أن الحاج سيعود بجديد قريبًا، حتى شكّ في جدوى الأمر كله.

رحّب بحرارة بالحاج «عبده»، لم يكن مضطرًّا لافتعال شيء في ترحابه، فقد أحسّ تجاهه براحة خفية منذ لقائهما الأول، رغم رهبته منه في بداية الأمر، إلا أن شيئًا ما من الألفة نما بينهما، وأشعره بأن علاقته بهذا الرجل لن تكون سطحية أبدًا.. كما أنه مَنَّى نَفْسه كثيرًا أن الرحلة القادمة لملكة الحاج قد تساعده على رؤية «سكينة»، المرأة الفاتنة التي سكنت عقله الباطن، ولم تخرج منه منذ رآها، وكأنها داعبت شيئًا في روحه لم تصل إليه من قبلها أي امرأة، ولا حتى زوجته.

حاول أن يستفهم من الحاج عن أي جديد، فصمم الحاج أن التليفون لا يناسب حديثهما، ولا بد أن يأتي لرؤيته بنَفْسه، قائلًا.

– هخلي واحد م الرجالة يستناك عند الفتحة اللي بتدخل ع المنطقة.. ما تقلقش هو هيعرفك لوحده.. آه بقولك، تعالى لوحدك.. متجبش «خالد» معاك.

كان للحاج «عبده» مَلَكة لا ينكرها أي ممن تعاملوا معه، فقد كانت قوة شخصيته الساحرة تساعده على إعطاء الأوامر لكل مَن حوله تقريبًا، بمنتهى الود، ودون حاجة لإقناع مَن يخاطبه أو إرغامه على شيء، قوة صوته العميق وتأثيره، ونبرته الواثقة الهادئة دومًا، تُشعِرك أن ما يخبرك به فيه الصالح لك، حتى لو لم تدرك السبب في حينها.

استقلّ «علي» سيارة أجرة، فلم يكن مُستعدًا لتحمُّل زحام المترو في ساعة الذروة هذه.. وخلال الرحلة تذكر ما حدث منذ أربعة أيام، عندما قرر أن يستعين بأحد جيرانه، وصديق الطفولة والمدرسة الابتدائية، المعروف حاليًّا بـ «سعد الرِكلام»، الذي ترك التعليم مع نهاية الإعدادية بعد أن فشل في نيل شهادتها، واتجه إلى مسارات بعيدة عن التعليم تمامًا، والآن هو من أهم موزعي المخدرات في الناحية بحالها.. على الرغم من اختلاف نمط حياتيهما تمامًا، إلا أنه نجح في الاحتفاظ بعلاقة طيبة به، حتى إنه كان من أوائل المدعوين إلى عُرس «سعد» الذي أقيم منذ عامين تقريبًا.. لجأ إليه «علي» وقرر أن يستعلم منه عن «عبده الغنيمي»، لعلّه يعرفه أو سمع عنه ما لا يعلمه.. اصفّر وجه «سعد» لدى سماع اسم الحاج، وضغط على ركبة «علي» وهو يسأله بنبرة مهزوزة:

- اوعى يكون بينك وبينه شر يا ابن الناس!

فطمأنه أن معرفته به مُقتصرة على لجوئه إليه بصحبة أحد الأصدقاء الذين تعرضوا إلى النصب في شراكة تجارية، فتنفس «سعد» هواء الراحة، وبدأ يحكي له ما يعرفه عن أسطورة «عبده الغنيمي» كما خرجت الكلمات منه.

بدأ كلامه بتحذير شديد اللهجة لـ «علي» ألا يغتر بطريقة «عبده» الهادئة العذبة في الكلام، وحالة الدروشة التي قد تبدو عليه أحيانًا، فهذا الرجل واحد من كبار العالم السُفلي في مصر، يعيش بين أهل منطقته كجيش يتحصن به، ولا يسمح بدخول غريب بينهم، إلا بعد أن يُختبر بقسوة.. شكّاك بطبعه، شرس دون ضجيج، ضربته خاطفة لا تشعر بها إلا بعد فوات أوان الحذر.. له صلات وطيدة بكبار القوم والحُكّام الفعليين للبلد من كبار رجال المال والأعمال.. عمله ومصدر قوته هو امتلاكه لمجموعة من الرجال شديدي الإخلاص له، يستخدمهم في تأمين ما يُطلَب منه تأمينه من الكبار، صفقة سلاح تعبر الصحراء هنا، أو شُحنة آثار في طريقها إلى خارج البلاد في موكب صغير لا يليق بعظمة رُفات الملوك والأمراء القابعين في التوابيت وخلف الأقنعة الذهبية..

أحيانًا يتم الاستعانة به في أعمال الانتخابات، إلا أنه لا يُفضلها ويتجنب الاشتراك في أعمالها، رغم إغراءات المال، ولا يتورط فيها إلا لأجل شخص يهمه أمره للغاية.. هو واحد من «معلمين مصر»، هذا المُسمى الغامض الذي يمكنك أن تسمعه في مواضع عدة بعيدًا عن أضواء التلفاز، هم نجوم العالم الواقعي لا الشاشة، المسكون بمفاصل البلد، مُشكلون ثقل لا يمكن تجاهله، حكومة موازية للحكومة الرسمية، وربما أكثر منها نجاعة في أوقات كثيرة.. نُصب عليك في مال؟ أحد المعلمين يساعدك على استرداد حقك.. تم طردك من شقتك عُنوة أو بلعبة شبه قانونية؟ أحد المعلمين يعيدك مُعززًا مُكرمًا لتنام تحت سقف بيتك.. سُرقت منك سيارة تعزّ عليك؟ لا داعي لتحرير محضر في القسم، محضر شفوي في حضرة أحد المعلمين يكفي لتعود السيارة إليكَ خلال أسبوع على الأكثر.. وكله بحسابه، لكن المال ليس كل شيء، على الأقل عند كبار المعلمين، وبالأخص عند «عبده الغنيمي»، الذي ينتقي زبائنه بدقة وحرص، ويرفض من عروض العمل أكثر بكثير مما يقبل، فهو لا يقبل أن يُعين ظالمًا، أو شخصًا لا يُعطيه قدْره من الاحترام.

نزل من سيارة الأجرة وكلام «سعد» لا يفارق ذهنه، وقبل أن يلتفت بكامل جسده، اقترب منه شاب فارع الطول، وسأله بصوت محشرج:

- أستاذ «علي»؟

أومأ «علي» برأسه مؤكدًا، فأشار إليه أن يتبعه دون أن يُضيف شيئًا.. وبعد دقائق من المسير في أزقة وحارات غير ممهدة، وجد نَفْسه أمام الحاج «عبده»، وبجواره ابنته شديدة اللُطف «ورد»، التي طالعته بابتسامة عريضة ضاقت لها عيناها حتى صارت وكأنها طفلة كبيرة تلف وجهها بطرحة زرقاء، أسفلها عباءة سوداء مُطرزة عند الصدر بورود صفراء.. صافحه الحاج بقبضة قوية مبتسمًا في ترحاب

أكثر حرارة.. اقترب «علي» من «ورد» في حذر، ومد يده في جيب الجاكيت الأيمن، وأخرج مكعب شكولاتة كبير الحجم، وأعطاه إياها قائلًا بخجل:

- يا رب تكوني بتحبيها يا ست «ورد»!

اتسعت ابتسامتها والتقطت منه الشكولاتة، وشكرته بهزة من رأسها، ثم قبّلت باطن يدها اليُمنى، ورفعتها إلى السماء، كأنها تود أن تخبره أنها تدعو الله من أجله.. وقف الحاج وقد زادت ابتسامته، أعجبه ذوق «علي» وحُسن تصرفه مع ابنته، وقد كان يمتلك ضَعفًا لا حدود له تجاه مَن يُحسِن معاملتها، فاعتبرها علامة أن إحساسه تجاهه أتى في محله، فقد اعتبره نبيهًا ذا أصل طيب، من لقائهما الأول، شخصًا يستطيع أن يكون جديرًا بالثقة لو مُنحت له.

كانوا واقفين خلف منزل الحاج بالضبط، في الشارع الموازي له من الخلف، في أرض فضاء متوسطة المساحة، يبدو أن بيتًا كان مقامًا بها وتم هدمه ورفع أنقاضه، وفي قلبها بيت خشبي بدائي الصنع، لا باب له، وبالداخل أوانٍ تحمل بقايا طعام وماء، خمّن «علي» أنه بيت كلاب غالبًا، لكنه لا يراها!

انتحى الحاج به جانبًا قليلًا، راغبًا في بدء الحديث معه، إلا أن «ورد» بدأت تُصفِّر بقوة، مستخدمة أصابعها التي تضعها بين شفتيها، علا صوت صفيرها ومعه سمعا صوت ركضهم قبل أن يرونهم، ثلاثة كلاب ضخمة لها مظهر مخيف، عضلات صدرها قوية، وفكها المفترس لا يحتاج فيلمًا وثائقيًّا يشرح قوة تأثيره.. أحاطوا «ورد» من كل جانب، وبدؤوا يلمسون صدرها وظهرها بقوائمهم في ود، كأنهم يحتضونها.. وضعت الشكولاتة في جيب العباءة الجانبي، وبدأت في تقبيلهم واللهو معهم، و«علي» يحاول التماسك وطرد فكرة أنهم سيلتفتون إليه ويهجمون عليه في أي لحظة.. لاحظ الحاج خوفه، بينما «ورد» تبتعد بصحبتهم إلى داخل الأرض قُرب البيت الخاص بهم، وهم يركضون أمامها وحولها، فقال له وكأنه يستكمل حديثًا بدأه من قبل:

- أصل الكلاب دي أجدع مخلوقات ربنا.. آه والله، ما بآمنش على «ورد» بجد من قلبي غير معاهم.

هزّ «علي» رأسه موافقًا، ثم بدآ المسير بخطوات هادئة مبتعدَيْن قليلًا عن الأرض الخلاء، وإن ظلّت في مجال بصرهما.. لم يعرف «علي» ماذا يقول لو بدأ الحديث، ففضل الصمت في حضرة الحاج، حتى يبدأ هو الكلام مرة أخرى.

حيا الحاج أحد المارة، والذي توقف ليصافحه بتبجيل وحرارة، ثم قال وهو يراقب «ورد» والابتسامة تغطي وجهه:

- على فكرة أنا عملت تحريات عنك، زي ما أنت عملت تحريات عني يا أفندينا.

تجمّد «علي» في مكانه، وكأن الأرض ضاقت عليه بما رحبت، راقب الحاج ملامحه المرتعبة لثوانٍ، ثم قهقه ضاحكًا وهو يجذبه من ذراعه ويسير بجواره:

- ما تقلقش كده يا عم «علي»! أنتَ مش راجل كاتب، وكنت جورنالجي زي ما الواد «الصمطي» عرّفك قُدامي؟ يبقى أكيد سألت ولفيت ورحت وجيت وعرفت عني كل اللي كان لازمك تعرفه عني، أومال هتسلمني مصلحة صاحبك الغلبان ده كده عِمياني؟

أشار إلى «ورد» بيده عاليًا مُلوحًا في محبة، ثم أكمل حديثه:

– ودي حاجة ما تزعلنيش، ده حقك.. وأنا كمان سألت عنك كويس وعرفت عنك كل خير، وإنك راجل نضيف وشاطر في شُغلتك.. وكمان جدع، بس جدع دي من عندي أنا.. ما هو اللي يتصدر لواحد صاحبه في حوار زي ده، من غير ما يبقى له أي مصلحة، يبقى راجل جدع.. وأنا أقدَّر الجدعان واللي يصون اللُقمة.. وأنا أتأكدت إن مالكش أي مصلحة في موضوع صاحبك الخيبة ده، وإنك واقف معاه جدعنة وبس.

ثم تأبط ذراع «علي» في ود وهما يسيران عائدَيْن تجاه «ورد»، راغبًا في إزالة أي توتر بينهما، واستطرد:

– أنا ما تأخرتش عليكم تُقل لا سمح الله.. بس اللي قصدتهم في السؤال كانوا لازم ياخدوا وقتهم لحد ما يلاقوا لي طرف خيط آخره الواد النصّاب ده، ولقيناه الحمد لله.. شوف يا أفندينا، الواد ده لا عمره لا كان صاحب جيم ولا حتى صاحب عربية فول.. ده طول عمره عيل صايع شُغله بين الغردقة وشرم الشيخ وطابا.. اشتغل كل حاجة، مترجم، غطّاس، سفاري في الجبل، مدرب في جيم في العين السخنة.. لحد ما وقع على ست روسية مرتاحة شويتين، بس عجوزة 3 شويات.. ورافقها مُدة، يمكن سنة أو أكتر..

ضحك الحاج وكأن القصة أعجبته، ثم نظر في عيني «علي» الذي كان مُتحفزًا لسماع الباقي، وأكمل كلامه:

– بقدرة قادر الواد عرف يقلّبها في فلوس حلوة قوي.. جِنّ مِصوَّر ابن الإيه! أخد الفلوس من الست، اللي كانت عايشة في وهم الحب يا عيني، ونزل على القاهرة.. دورت عليه شهر وف أول التاني قابلت وجه الكريم، وكان صاحبنا وقتها بيتعرف عليكوا عندنا هنا.

وصلا إلى الأرض شبه الخالية، ليجدا «ورد» تجلس على التراب في منتصفها بالضبط تقريبًا، خلفها البيت الخشبي المُعد للكلاب، بينما الكلاب نَفْسها نائمة على ساقيها كالقطط الوديعة، بينما هي تمسد رأس أحدهم وظهر الآخر، وتتركه لتداعب رأس الثالث النائم أسفل قدمها في هدوء.. حاول «علي» أن يطرد اندهاشه من المشهد سريعًا، رغم أن مشهد الكلاب المتوحشة وقد استكانت بهذا الشكل لم يكن عاديًّا أبدًا، إلا أنه سأل الحاج بلهفة:

- طيب هو مكانه فين دلوقتي يا عمنا؟

أجاب الحاج أنه لم يتوصل إلى مكانه الحالي، إلا أن معرفته بمكانه السابق تعني أن الوصول إليه سيكون في مدى قريب.. معلومة أنه يتحدث أكثر من لغة أجنبية جعلته يبدأ اتصالاته بكل مَن يقدرون على التنقيب والبحث بطول البحر الأحمر وسيناء، في هذه الناحية يكثر أمثال هؤلاء الشاب، من ذوي الذكاء الحاد، والطموح العالي، وعدم القدرة على الالتزام في عمل منتظم، والرغبة في جني أكبر قدر ممكن من المال في أقصر وقت.. وبالفعل أثبت الواقع صحة افتراضية الحاج.. الذي قال بهدوء ونبرة تكسوها الطمأنينة:

– هنلاقيه.. هو مش هنا، ولا هيرجع ناحية البحر الأحمر.. هيدوّر على مكان جديد، بس بمشيئة ربك هنلاقيه.

حاول أن يستأذن في الانصراف، إلا أن الحاج أوقفه بقبضة قوية ممسكًا بذراعه، وأخبره أنه لا بد أن يتغدى معه اليوم.. ثم قال مؤكدًا على إلزامية الدعوة:

– ده حتى الست «ورد» طابخة لك بإيديها النهاردة! ما تبقاش مُغفل.

ابتسم «علي» مُرحبًا قابلًا عزومة الغداء، وفي قلبه كان مطمئنًا لصُحبة الحاج وابنته، التي اقتربت بخطوات مُسرعة وابتسامة واسعة وشبكت أصابعها في كف أبيها.

أما قلبه، فظل متمسكًا بأمل أنه لن يغادر مملكة الحاج اليوم، إلا بعد أن يرتشف من ملامح «سكينة» مرة أخرى..

غريبة هي قلوب الرجال!

18

بعد أسبوع من لقائه الأخير بالحاج «عبده»، اتصل به عبده الغنيمي مرة أخرى، لكنه أخبره في أثناء المكالمة أن الاتصال ليس بخصوص «خالد» ومشكلته، بل دعوة على العشاء. لم تكن الغرابة في موقف «عبده» ودعوته غير المبررة على العشاء، بل كانت الغرابة الحقيقية في سعادة «علي» الغامرة بهذه الدعوة، حتى إنه تأنق وارتدى أجمل ملابسه وتعطر على غير عادته لما تعانيه بشرته من حساسية للعطور.

“علي» نفسه كان مندهشًا من شعوره، ومن سذاجة موقفه، لم يكن في أبعد أحلامه يتوقع أو يتخيل أن تصير له علاقة خاصة بواحد من أخطر الرجال في مصر كلها، رجل حياته ضبابية تسير في الظلام لا يعرف أحد ما الذي يفعله ولصالح مَن! لكنه مع ذلك كان فرحًا بهذه العلاقة التي تتوطد وتقوى مرة بعد مرة، نعم هو كان يشتاق بشكل غريب إلى رؤية سكينة ولو لمرة أخرى، ولعل اهتمامه بمظهره عائد إلى ذلك، لكن هذا لا ينفي أنه كان يسعد برؤية الحاج «عبده» وابنته «ورد»، ويشعر بألفة غريبة نحوهما.

عندما وصل إلى الحارة كان كالعادة ينتظره أحد المبعوثين من الحاج ليأخذه إليه، كان يتلفت وهو يمشي بجواره لعل عينه تقع على وجه رآه لمرة واحدة لكنه لم يستطع نسيانه. غير أن أمنيته لم تتحقق.

استقبله الحاج «عبده» بود واضح وجلسا معًا بالمقهى لنصف ساعة قبل أن ينطلقا معًا إلى منزل الحاج. تناولا عشاءً عامرًا بالخيرات، وشربا الشاي معًا، ثم سأله «علي»:

- في جديد في موضوعنا يا حاج «عبده»؟ أنا عارف والله إنك مش مقصر في حاجة.. بس «خالد» الغلبان قاعد على نار.

- يعني هو أنا ماينفعش ابعت لك غير في المصلحة يا أستاذ «علي»؟ إحنا ناس جدعان ونقدر الجدعان برضو..

أحس «علي» بالندم لإقحامه موضوع «خالد» في هذه الجلسة الودية، وشعر بالحرج، فاعتدل في جلسته، وقال بوجه صادق:

- ربنا عالم يا حاج «عبده» أنا قد إيه بتبسط لما أشوفك وأقعد معاك، وبفرح لما أشوف الست «ورد».. أنا بس خفت تكون باعت لي في خصوص الموضوع بتاعنا ومحرج تفتح الكلام بما إنك بعت لي على أساس إنها عزومة عشا، فقلت أرفع عنك الحرج وأفتح أنا الموضوع لو كان كدة.

- لا يا سيدي مش كدة.. كل الحكاية إنك وحشتنا ودخلت قلوبنا فقلنا نشوفك.. إنت أصلك بتفكرني بابني الله يرحمه.. كان طيب زيك وشهم.. بس ما كناش على وفاق سوا.. وما كنش عاجبه شغلي.. وربنا أذن يسترد أمانته بدون مقدمات.. ولما شوفتك وشوفت شهامتك وطيبتك حسيت إن ربنا بعت لي حد يواسي الأحزان المكتومة.

- ربنا يرحمه يا حاج ويصبر قلبك... شرف ليا إنك تعتبرني زي ابنك والله.

استمرت الجلسة لساعتين بعد العشاء، ثم استأذن «علي» بالانصراف، فأذن له الحاج «عبده»، وعرض عليه أن يوصله بنفسه، فرفض «علي» وألح عليه ألا يتعب نفسه، حتى إنه طلب منه ألا يرسل إلى أحد رجاله ليوصله، وأخبره أنه صار واحدًا منهم ويريد أن يتمشى في المكان وحده، حتى يحفظه ويستطيع أن يزوره بعد ذلك بغير دليل يعرفه الطريق.

وبالفعل وافق الحاج «عبده» على ذلك، وخرج «علي» يمشي بين الأزقة والدروب المتداخلة، ويعصر ذهنه مهتديًا بالعلامات، ينظر إلى ألوان أبواب البيوت، وإلى واجهات الدكاكين التي لا توجد يافطات تميزها، لكنه يحاول أن ينقش كل ما يراه في عقله، وبينما هو غارق في تركيزه على واجهات المنازل والدكاكين، ليجعل منها علامات ترشده، إذ به يسمع صوتًا يناديه:

- لا مؤاخذة يا سي الأستاذ.

التفت «علي» إلى مصدر الصوت، فأصابته المفاجأة بالخرس حينما رأى نفسه وجهًا لوجه أمام «سكينة»، ترتدي نفس العباءة التي رآها فيها أول مرة، ولصوتها نفس النبرة الحانية التي انطبعت في أذنه، لكنه هذه المرة استطاع أن يدقق في ملامحها عن قرب، عيونها الواسعة وشفتيها الطريتين الممتلئتين، وأنفها الدقيق، تظهر خصلة سوداء ناعمة كالحرير هربت من طرحة رأسها. وقف لبضع ثوانٍ يحاول استيعاب الموقف، غير مصدق لما تراه عينه، ثم قال بصوت حاول أن يخرج رزينًا لكنه خرج مرتعشًا:

- حضرتك بتكلميني أنا؟

فقالت بثقة ونفاد صبر:

- جرى ايه يا أستاذ هو في حد غيرك في الشارع يعني؟ أيوة بكلمك أنتَ.. قول لي الله يسترك.. أنا أصلي لمحتك كذا مرة مع الحاج «عبده» الله يبارك لنا في عمره.. فقلت أكيد أنت من حبايبه.. ما جابش قدامك والنبي سيرة «الرويعي» جوزي ولّا قال ناوي يعمل إيه معاه؟

تلفت «علي» حوله مثل تلميذ خائب ينتظر أن يغششه أحد زملائه في امتحان صعب، فهو لا يعرف إجابة سؤالها وفي نفس الوقت هو لا يريد أن يقول إنه لا يعرف فينتهي الكلام بينهما سريعًا، خاصةً أنه تمنى مثل هذه اللحظة مرات كثيرة في خياله، وها هي الفرصة جاءته على طبق من ذهب.. ورغم أنه لا يحسن الكذب ولم يكن من عادته، إلا أن الموقف اضطره إلى أن يخترع أي كلام ليطيل لقاءه مع «سكينة». فقال لها:

- في الحقيقة يا ست «سكينة»...

فاستوقفته قبل أن يكمل كلامه، لتسأله بغير غضب، بل كانت على وجهها بسمة رقيقة:

- وأنتَ عرفت اسمي منين يا سي الأستاذ؟!

ارتبك «علي» أمام ملاحظتها، ولم يجد أمامه مهربًا إلا أن يقول الحقيقة، فأخبرها أنه سمع الحاج «عبده» يناديها بهذا الاسم عندما رآها لأول مرة منذ أسابيع.. ودون أن يشعر وجد نفسه يقول لها بجرأة:

– أصل اسمك حلو أوي يا «سكينة».. ومعناه طيب.. ناس كتير تتمنى تلاقي السكينة وتدفع نص عمرها.. ويا خسارة ممكن يعيشوا ويموتوا من غير ما يلاقوها..

احمر وجه «سكينة» خجلًا، وقالت له وهي تنظر في الأرض:

– ربنا يعلي مراتبك يا أستاذ.. قول لي بقى الله يسترك.. ما سمعتوش جاب سيرة موضوع جوزي؟

– في الحقيقة يا «سكينة» هو قال هيتصرف.. مش فاكر بالظبط قال كدة أمتى.. ولا عارف هيتصرف إزاي.. بس أنتِ عارفة الحاج «عبده» لما بيقول حاجة ما بينسهاش..

– ربنا يطمن قلبك..

ثم وجد نفسه يشعر بشيء من الراحة، وعدم القلق، رغم أنهما يقفان معًا على رأس أحد الشوارع وقد يلفت وجودهما معًا نظر أي أحد، إلا أنه لم يكن يفكر إلا في «سكينة» وأي طريقة يستطيع بها أن يطيل وقت هذا الحوار، فتحجج بأنه يريد أن يساعدها في معرفة أخبار زوجها، وسألها عن رقم الموبايل الخاص بها، فقالت له وهي تضحك:

– موبايل إيه يا أستاذ، إحنا بنكمل عشانا نوم.

شعر في نفسه بالحزن، ثم وجد عقله الباطن يدفعه إلى سؤال هو نفسه لم يكن يتخيله، قال لها:

– أنتِ بتحبي جوزك يا «سكينة»؟

فقالت له بدون تردد:

– أبو عيالي يا أستاذ.. فوتك بعافية.

شعر بالندم على سؤاله الغبي، حتى إنه تسمر في مكانه للحظات قبل أن يعطيها ظهره ويواصل سيره، لكنه قبل أن يمشي خطوتين، سمع صوتها تناديه مرة أخرى:

– معلش يا أستاذ.. هو أنتَ اسمك إيه؟

– "علي»... اسمي «علي».

****

قضى «علي» أسعد ليلة مرت عليه في حياته، لا يعرف سبب سعادته، حتى إنه عندما حاول أن يصطنع الندم على ما فعل، وأنه بذلك يخون «سما»، كانت محاولته تفشل، فكل ما كانت تفعله معه «سكينة» يُظْهِرُ كم كانت «سما» تعامله بجفاء وقسوة.. لم ير طيلة سنوات زواجهما مثل هذه النظرة في عينيها ولو لمرة واحدة.. لم تكن تعامله بمثل هذا الأدب والتقدير.. دومًا تأمر ودومًا تشترط، ولا يرضيها إلا أن يحقق لها كل ما تطلبه منه.. هذه الدقائق التي قضاها واقفًا مع «سكينة» شقلبت حاله، وأحس أن

هناك شيًا جديدًا يتولد في داخله، لا يستطيع أن يقول إن هذا هو الحب.. لكن مهما كان ما يحدث، فإنه يسعده.

وعلى الجهة الأخرى، كانت «سما» تتقلب في فراشها لا تستطيع أن تنام، تنظر إلى السقف لوقت طويل، ثم تتحول إلى النوم على وجهها، ثم تنقلب على جنبها، وفي النهاية جلست على السرير تصرخ كأنها تحدث شخصًا أمامها:

– يعني هيجرى إيه لو ضحى عشاني مرة؟ هو لو بيحبني فعلًا كان وقف قدام مستقبلي وأنا عندي فرصة عمري...

ثم ترفع رأسها إلى السقف مرة أخرى كأنها تنتظر الإجابة على سؤالها، وتتلفت في الفراغ وتعود لتكلم نفسها:

– ده حتى ما عبرنيش باتصال من وقت ما اتصل آخر مرة وما ردتش عليه.. زي ما يكون ما صدق.

كانت ليلة مشحونة على كلا الجهتين، «علي» تسري في جسده كهرباء لقائه بـ «سكينة» وزلزال خوفه من خيانة زوجته، و«سما» تجتاحها عواصف الغضب لأنه لم يحاول أن يسترضيها وكأنه كما قالت زميلتها «مريم» قد تعوَّد الحياة بدونها.

كل منهما يشتاق إلى الآخر بطريقة ما، لكنه يغضب عليه بنفس القدر، كل منهما مصمم على اتخاذ موقف حاسم وتحقيق نصر في هذه المعركة الصامتة.

19

عاد «خالد» إلى عزلته، ليس بشكل كامل، لكنه أصبح لا يهتم بالخروج أو الاهتمام بمظهره، طالت لحيته مرة أخرى، وعاد إلى الشرب، وإن كان بدرجة أقل، لكنه بين ليلة وأخرى كان يشتري بعض زجاجات الخمور أو يشتري ما يكفيه للف سيجارتيّ حشيش، حتى «علي» أصبح يتجنبه بطريقة غير مباشرة، لأنه لا يستطيع أن يرى رقمه ولا يرد، فقد أصبح يغلق تليفونه لأوقات طويلة حتى لا يتلقى أي اتصالات من الأعزاء على قلبه، سواء والدته أو «علي».

مرّت ثلاثة أشهر ولم يحدث جديد، فلا عرف طريق «سالي» ولا استطاع الحاج «عبده» أن يرد إليه أمواله المنهوبة. أصبح اليأس يتسرب إليه خطوة بخطوة ويحن للعودة إلى الضياع مرة أخرى، على الأقل عندما يغيب عن الوعي تغيب معه أحزانه.

أما بالنسبة إلى «سما»، فقد مرت الشهور الثلاثة عليها ثقيلة، والحمد لله أن أمر الترشح للوظيفة الجديدة في دبي قد تم تأجيله قليلًا من الشركة نفسها، لكنها مع الوقت أصبحت متأكدة أن «علي» استطاع أن يتأقلم على حياته بعيدًا عنها، وأن حبه لها كان مجرد كذب وخداع، فكانت تحمد الله كثيرًا أنها لم تطع أمها أو صديقتها «مريم» وتتقرب إليه، وإلا لكانت خسرت كرامتها وليس فقط حب الرجل الوحيد الذي اختارته في هذا العالم.

عندما قالت لها أمها:

- لو ما كلمتيش جوزك وصفيتي معاه الأمور، أنا هروح له لحد البيت يا «سما» وأقوله نخلص الحكاية دي بقى وترجعوا لبعض... عيب يا بنتي أنتم مش صغيرين للعب العيال ده.. ما فيش ست بتفضل بعيدة عن جوزها كل ده.. ها؟ قلتِ إيه؟

حاولت «سما» أن تكتم غضبها قدر المستطاع، لكنها لم تستطع فقامت أمام أمها واقتربت منها وقالت بحدة لم تستطع أن تخفف فيها من نبرة صوتها الغاضب:

- طيب! جربي كدة يا ماما وروحي له.. وأنا والله العظيم هسيب لك البيت وما هتعرفي لي طريق.. لو أنتِ عاوزة تحافظي على بيتي فأنا عاوزة أحافظ على كرامتي يا ماما... ومش هفرط فيها أبدًا.

شعرت أمها أن ابنتها تعيرها بما فعله معها أبوها، وتريد أن تقول لها إذا كنتِ أنت بلا كرامة فأنا لن أتنازل عن كرامتي! حتى لو لم تقل هذا بشكل صريح لكن الكلام كان شديد الوضوح ولا يحتاج إلى شرح. لذلك لم تستطع «فاتن» أن تقاوم غضب ابنتها أو ترد عليها، واكتفت بأن قالت لها قبل أن تقوم إلى غرفتها:

- طيب يا بنتي.. اعملي اللي تشوفيه.. حياتك وأنتِ أدرى بيها.

****

تكررت اتصالات الحاج عبده بعلي عدة مرات يدعوه فيها للزيارة بغير سبب، وفي كل مرة كان يسعفه الحظ برؤية سكينة لكن لدقائق معدودات.. ثم انقطعت فجأة اتصالات الغنيمي به. ومرت فترة طويلة،

دون أن يتصل به الحاج «عبده»، وعندما أراد أن يتصل هو به، وجد الهاتف لا يرد أو مغلقًا أغلب الوقت. ذهب إلى «الصمطي» ليعرف منه أي شيء عن الحاج ولو بشكل غير ومباشر، وفي نفس الوقت يسأله عن أخبار مشكلة «خالد» وإلى أين وصل الحال.

لكن تفاجأ حين ذهب إلى «مقهى شحاته» أن العاملين بالمقهى أخبروه أن «الصمطي» متغيب عن العمل منذ أسبوع. أحس «علي» بأن هناك شيئًا ما غير صحيح في الموضوع، وأن هناك علاقة بين عدم رد الحاج «عبده» على اتصالاته وتغيب «الصمطي» عن العمل.

شعر «علي» بالفزع، وسأل نفسه:

- معقول يكونوا زعلوا مني عشان وقفت مع «سكينة» مرتين تلاتة، وكل مرة ما كنتش بتزيد عن أربع دقايق بعد أول مرة طولنا فيها؟

كان هذا الهاجس يرعبه، ليس خوفًا على شكله فقط أمام الحاج «عبده»، ولكن هناك خوف آخر كان أشد، خوفه على «سكينة» أن يغضب عليها الحاج «عبده»، فهو يعرف جيدًا أن غضبه سيئ العواقب وأنه لا يرحم من يحس فقط أنه حاول أن يخدعه.

قرر «علي» أن يذهب بنفسه إلى الحاج «عبده» ليرى ما الذي يحدث. عاد إلى البيت مهمومًا وفي نفسه أن يذهب إليهم في الغد بعد انتهاء موعد العمل مباشرة. وعندما دخل إلى غرفته لينام، استوقفته أمه بنبرة حادة:

- أنا مش عاجبني اللي بيحصل ده يا «علي بيه».. يعني سايب مراتك ولا سائل فيها.. وكل يوم سهر وتأخير.. أنا ما ربتكش على كدة ولا أرضى تكون كدة.. ما عرفش ليه بقيت شبه أبوك وبتعمل نفس عمايله كإن شقى عمري على تربيتك راح من غير فايدة!

حاول «عليّ» أن يكظم غيظه كالعادة ويتجاهل تأنيبها له ولومها الذي لا ينتهي وانتقادها لكل ما يفعل، لكنه في هذه الليلة لم يكن يحتمل أي ضغط إضافي لما يشعر به، فوجد نفسه بدون أن يشعر يصيح فيها بصوت مرتفع:

- اسأل في مراتي ولا ما سألش يا ماما دي حياتي وأنا حر فيها.. وأنا ما بقتش صغير عشان كل يوم تقولي لي اتأخرت اتأخرت.. كأن العيال الصغيرة هتضحك عليّ وتخليني أشرب سجاير في الشارع.. أنا تعبت بقى يا ماما من الأسلوب ده وما بقتش مستحمل.. أنا لا شبه أبويا ولا شبه غيره.. ومع ذلك اسألي نفسك بابا سابنا ليه يا ماما.. اسألي نفسك يمكن تعرفي..

وقفت أمه مذهولة أمام هذا الوجه الذي لم تره أبدًا من ابنها طيلة حياتها، وأحست بالخطر الحقيقي، وأن ابنها قد تغير وربما يأتي اليوم ويتركها هو الآخر إلى الأبد، ولذلك قررت أن تتراجع خطوة وتخفف من الجو الذي اشتعل، فقالت له بصوت يظهر الحزن في نبرته، وتعمدت بشكل ما أن يخرج مرتعشًا ليؤثر في ابنها الذي تعرف جيدًا أنه مهما تغير، فإنه لا يمكن أن يصبح قاسيًا، فقالت:

- أنت بتذلني بأن أبوك سابنا ومشي.. أنا ضيعت عمري وشبابي عشان سعادتك أنتَ وأختك وبس.. وبرضو حقك عليّ.. أنا مش عاوزة لك غير الخير يا بني.

تحقق مرادها؛ حيث شعر «علي» بالندم وتقدم نحوها، وقبّل رأسها وهو يقول:

- حقك عليّ يا ست الكل.. ما تزعليش مني.. والله أنا أعصابي تعبانة ومضغوط.. ما كنش قصدي أزعلك.

ابتسمت أمه وأحست أنها حققت شيئًا من الانتصار في هذه المعركة التي كانت على وشك أن تخسرها، وقالت له وهي تتجه إلى غرفتها:

- ولا يهمك يا حبيبي.. ما تنساش تدخل بس الحمام تغسل سنانك قبل ما تنام، وابقى اطفي نور الحمام عشان دايمًا بتنساه مولع.

يمكن أن يتغير العالم بأسره، لكن طريقة الأمهات لا تتغير أبدًا!

في صباح اليوم التالي وبعد ليلة ثقيلة، ذهبت «سما» إلى عملها بدون نوم تقريبًا، حتى إن مساحيق الزينة لم تستطع أن تخفي الهالة السوداء أسفل عينيها، أو التورم الذي ما زال أثره ظاهرًا لكثرة بكائها طوال الليل. دخلت إلى المكتب متأخرة نصف ساعة لأول مرة في تاريخها منذ أن عملت بالشركة، فقابلتها «مريم» مفزوعة:

- سما! مالك يا حبيبتي! إيه اللي أخرك كدة؟ ده أنتِ عمرك ما عملتيها، ومال عيونك شكلها مورم؟

اكتفت «سما» بهز رأسها واتجهت مباشرة نحو مكتبها، وأخذت تفتح الأدراج تخرج منها أوراقًا لا تعرف ما هي، ولا لماذا تخرجها، ثم تعيد غلق الأدراج. لم تتعود أن تكون في مثل هذا الموقف إلى درجة أن يشفق عليها أحد، حتى لو كانت أقرب صديقاتها.

مريم تعرف جيدًا طبيعة صديقتها، فتركتها لتهدأ فترة، واستدعت «الأوفيس بوي» وطلبت منه أن يعد كوب نسكافيه كبير لـ «سما»، فهي تعرف أنه مشروبها المفضل، وأنه المشروب الوحيد الذي يمكنه أن يغير من حالتها المزاجية العكِرة. بعد مرور حوالي ساعة اقتربت منها «مريم»، وسألتها بحنان بالغ:

- لحد إمتى هنفضل كدة طيب يا «سما»؟

فأجابتها بعدما نظرت في عينيها قليلًا:

- قريب أوي كل حاجة هتتصلح.

وقبل أن تكمل جملتها اتصلت بها سكرتيرة المدير تخبرها أنه يريدها حالًا.

ذهبت إليه وهي تظن أنه سيعاتبها على تأخرها، وعقدت العزم أنها لن تسمح له بأي نوع من اللوم، فهي الموظفة الوحيدة التي لا تتأخر أبدًا. لكنه كان يريدها في أمر آخر. فقد أخبرها أن الشركة حسمت الأمر ووقع عليها الاختيار للسفر إلى دبي، ثم هنأها بابتسامة كبيرة وقال:

- أنا عارف إنك قدها وقدود، وإنك هترفعي رأسنا هناك، نجاحك نجاح لينا كلنا، جوزك هيسافر معاكِ ولا هتعملي إيه؟

أطرقت «سما»، ثم رفعت رأسها وتبسمت بسمة غير صادقة، وقالت:

- اديني فرصة يومين.. وبعد الويك إند، هقولك موقفي الأخير.

وفي الجهة الأخرى، وصل «عليّ» إلى الشركة قبل موعده بنصف ساعة تقريبًا؛ حيث لم يستطع النوم وظل مستيقظًا أغلب الليل هو الآخر، وما إن أغمضت عينه لساعة واحدة حتى وجد نفسه مستيقظًا بعد الفجر مباشرة، فظل جالسًا في سريره حتى طلعت الشمس، ثم ارتدى ملابسه وظل يتمشى في الشوارع، حتى تعب من المشي فاستقل سيارة أجرة وذهب إلى العمل قبل الجميع.

عندما دخل «سعيد» ووجده جالسًا على المكتب اقترب منه وقال:

- ده إيه النشاط ده كله يا «أبو علي»، أيوة كدة خليك ملتزم عشان نحبك كلنا.

فرماه «علي» بنظرة حادة وقال له:

- وحد قال لك إن يفرق معايا تحبني ولا تكرهني! اتكل على الله بعيد عني بدل ما أوريك وش عمرك ما شفته مني.

وقبل أن يرد «سعيد» على هذه الإهانة الواضحة، كان «رامي» يقف على باب المكتب وقد سمع الحوار الذي دار بينهما، فأسرع ليقف في المنتصف قائلًا:

- جرى إيه يا فنانين الشركة، صلوا ع النبي أومال، إحنا في مقر العمل برضو وما يصحش كده.

ابتلع «سعيد» الإهانة كالعادة، فهو قد درّب نفسه جيدًا منذ زمن بعيد على تلقي الإهانات في سبيل أهدافه، لكنه لم يكن مستعدًا لتلقي الإهانات دون مقابل، ولذلك كان يضمر في نفسه الانتقام من «علي» في أقرب فرصة.

أما «علي» فقد قضى اليوم وهو مستعد للاشتباك مع أي أحد في الشركة بدءًا من صاحبها إلى أصغر عامل فيها. وقد لاحظ «رامي» هذا التحفز الواضح على صاحبه، فاقترب منه قبل موعد نهاية العمل بساعتين تقريبًا، وقال له:

- بقول إيه يا برنس! أنتَ شكلك ما لكش مزاج تشتغل النهاردة، وبالنسبة للمشروع الجديد فهو خلاص بيتفنش، إيه رأيك تاخد لك إذن انصراف ساعتين بدري وتروح تغير جو على القهوة، وأنا أول ما أخلص هحصل لك.

أعجبت الفكرة «علي» وقال له:

- والله عندك حق، أنا فعلًا مش طايق نفسي، هسبقك ع القهوة، ولو عرفت تخلع بدري حتى قبل معاد الانصراف تعالى.

رفع له «رامي» إبهام يده اليمين مؤكدًا على صحة موقفه، وبالفعل ترك «علي» مكتبه وكتب إذن انصراف وذهب إلى المقهى المعتاد لهم.

كانت فرصة جيدة ليخلو بنفسه بعيدًا عن جو العمل وبعيدًا عن منزله؛ حيث إلحاح أمه الذي لا ينتهي في كل شيء. طلب فنجان قهوة وجلس يفكر في وضعه مع «سما». لأول مرة يحس بشوق حقيقي إليها وحنين، ورغم انشغاله بـ «سكينة» من وقت إلى آخر إلا أنه كان يعرف في داخله أنها ليست نزوة ولا هو طبعًا حب، إنما فقط كانت تمثل له أمنيته التي لم تتحقق يومًا. وقد تعلم درسًا خلال هذه الأشهر التي مرت منذ تركت له «سما» المنزل، وأهم ما فهمه في هذا الدرس، أن من حولك لن يغيروا نظرتهم لك إلا إذا غيرت أنت نظرتك لنفسك أولًا، وأنهم لن يحترموا رغباتك ما لم تكن أنت تحترمها.

ولذلك فكر في إصلاح حياته بالطريقة الصحيحة، فهو يحب «سما»، وهي عشق حياته، لكنه في الوقت نفسه لن يتنازل عن أحلامه مرة أخرى، ولا يجب أن تكون العلاقة عبارة عن آمر ومأمور، فلا بد أن تكون شريكين يتكاملان وليس أحد الطرفين كل دوره إرضاء الآخر. قرر في نفسه أنه سيذهب إليها، ويقول لها إنه يحبها ولم تزل هي كل حياته، لكن عليهما إعادة ترتيب الأوراق، وأن يتعلما معًا أنهما معادلة من طرفين وليس طرفًا واحدًا. يمكن أن يحاولا قدر استطاعتهما أن يغيرا من نفسيهما وأن يتقبل كل منهما شريكه كما هو لا أن يسعى إلى تغييره ليناسب هواه.

عندما وصل «رامي» إلى المقهى بعدما استأذن هو الآخر في انصراف مبكر مثلما وعده، وجدَ «علي» في انتظاره، وملامحه تدل أنه أصبح أكثر هدوءًا. جلس «رامي» متهالكًا على الكرسي إلى جوار «علي» وهو يتصبب عرقًا، ورفع رأسه إلى أعلى حتى ظهر لغده جاعلًا وجهه مستديرًا بشكل طفولي مثير للضحك، لكنه يجعلك تطمئن إلى صاحب هذا الوجه وتحبه. أخذَ نفسًا عميقًا ثم التفت إلى «علي» وقال:

– لو أعرف يا عم إن القهوة هتخلي مزاجك حلو كدة كنت قلت لك أعمل إذن انصراف كل يوم وتعالى هنا روق.

– سيبك من الشغل أنا عاوز آخد رأيك في موضوع مهم!

– خير اللهم اجعله خير.. ما تقوليش «خالد» تاني!

– لا خالص.. أنا عاوز أروح لـ «سما» وأتكلم معاها.. ونتفاهم .

– عين العقل.. أهو ده الكلام.

كان «رامي» صادقًا في حزنه على الاختلاف الحاصل بين «علي» وزوجته «سما»، ويرى أنها زوجة مثالية وبنت ناس، ربما كانت نظرته نابعة من طبيعته وطريقة تربيته التي تقيس الناس بمستواهم المادي، وهذا لا ينفي أن «سما» بالفعل كانت تستحق الاحترام. ولذلك شجع «علي» أن يذهب إليها بلا تردد، بل وقال له:

– طيب يا عم ما خير البر عاجله.. توكل على الله وروح لها النهار ده.

لكن «علي» رفض نصيحته وقال له:

- مش عاوز أتسرع في الخطوة دي عشان ما نرجعش لنفس المربع ده مرة تانية.. لازم أرتب أموري ونعرف مشاكلنا ونحلها وبعدين نرجع.. هي عاوزاني أروح معاها دبي.. وأنا عاوزها ما تبقاش أنانية وتخطط لي حياتي على مزاجها.. والحل إننا نمسك العصاية من النص.. أنا هستنى لحد ما نسلم مشروع الدعاية اللي شغالين عليه، وبعدها هقدم استقالتي وأسيب الشغل.. وأحصل لها على دبي.. وما عنديش أي مشكلة أقعد معاها هناك سنة ولا اتنين.. وأهو بالمرة أكون متفرغ عشان بفكر أرجع أكتب تاني.. فيه في دماغي مشروع رواية كده وهياخد وقت.. ووجودي هناك هيخليني أتفرغ لكتابتها.. وبعدها نرجع مصر وأرجع أنا لحياتي اللي بحبها أكتب في الصحافة وأكتب رواياتي اللي بحلم بيها.. وبكدة يبقى كل واحد فينا حقق ذاته وعمل اللي بيحبه.

نظر إليه رامي بعدم فهم وقال مستنكرًا:

- تسيب الشغل؟ وروايات؟ إيه اللي بتقوله ده؟

ابتسم له «علي» وأخبره أن هذا هو قراره الذي استقر عليه، وهذا هو الصواب الذي كان يجب أن يفعله منذ زمن. فقال له «رامي»:

- أنا لو أعرف إن قعدتك ع القهوة هتعمل فيك كده ما كنتش قلت لك خد إذن وامشي.

20

ظلت «سما» جالسة في غرفتها يومي الإجازة لا تخرج منها إلا لتأكل شيئًا لترضي أمها، ثم تعود سريعًا إلى الغرفة. كانت توازن أمورها بعدما قررت أن تتخذ قرارًا نهائيًّا في هذا الوضع، كانت تعرف أن عليها أن تخسر فرصة العمل أو تخسر زوجها، في الحقيقة لم يكن أمر العمل يمثل لها مشكلة كبيرة، إنما كانت تريد أن تضع «علي» في اختباره الأخير، فهي لا تثق في الحب بدون أفعال، بل ولا تثق فيه إلا بتضحيات كبيرة، تضحيات من أجلها، ليثبت من يحبها أنه متمسك بها فلا بد أن يبرهن على ذلك ببذل كل ما في يده.

ذكرياتها مع والدها تجعلها لا تفكر في نفسها وما يجب أن تبذله هي أيضًا، بل ترى أنها ضحية ودفعت ثمن حبها كاملًا وعلى الآخرين أن يقوموا بدورهم، متناسية أن زوجها ليس له ذنب فيما فعله معها والدها ومع أمها، لكن هكذا هي «سما»، دومًا ترى من زاوية واحدة، الخوف يسيطر عليها، والقلق يتملكها، وليس هناك طريقة تعيد إليها سلام نفسها إلا بأن يقدم من يحبونها قرابين الطاعة لإثبات أنهم حريصون عليها وأنهم لن يتخلوا عنها.

قررت أن تتصل بـ «علي» فور اتخاذ قرارها، لتواجهه المواجهة الأخيرة وتحسم هذا الأمر. قررت أن تخيره بوضوح بين الرضوخ لرغبتها أو أن تبتعد عنه للأبد. ولم تخبر أمها بقرارها، لكنها فقط أخبرتها أنها ستتصل به عندما تهدأ. فتفاءلت أمها وقالت لها بصوت مبتهج:

- عين العقل يا بنتي.. ربنا يهديكِ ويصلح حالكم.

في اليوم التالي، اجتمع «علي» بصاحب الشركة مع «سعيد» و«رامي»، وبعد مناقشات قليلة انفض الاجتماع، فقد وصل مشروع الحملة الجديدة لنقطة النهاية على أكمل وجه، وقد وعدهم «سند» بصرف مكافآت مجزية. وبعدما ضرب سطح مكتبه بباطن يده كعادته لينهي الاجتماع، اقترب منه «علي» وهمس في أذنه:

- عاوزك دقيقتين يا «سند بيه» من فضلك.

فأجابه «سند» بصوت مرتفع:

- آه طبعًا يا «علوة» عيوني اتفضل.

عندما سمعهما «سعيد»، ظل واقفًا في مكانه، يريد أن يعرف ما الذي يحدث، وماذا يريد «علي» من «سند»! جلس «علي» أمام مكتبه، و«سند» يشجعه على الكلام:

- ها خير يا علي؟

لكن «علي» لم يرد واكتفى بأن نظر ناحية «سعيد» الذي ما زال متخشبًا في مكانه. فالتفت «سند» ناحيته وسأله بجفاء:

- أنتَ إيه اللي موقفك كده؟

فرد عليه «سعيد» بابتسامة عريضة وهو ينتفض:

– أنا بس.. أنا بس خفت تحتاج حاجة يا «سند بيه»، فقلت ابقى جنبك.

فصرفه «سند» بإشارة من أصابعه وهو يقول:

– لا ما تقلقش عليَّ.. «علي» مش مسلّح.

وأطلق ضحكة عالية، وانسحب «سعيد» مثل فأر يهرب من مركبة غارقة.

كانت صدمة كبيرة لـ «سند» حين علم أن «علي» يجلس أمامه ليقدم استقالته من الشركة، وبالطبع لم يكن «سند» مستعدًا لخسارة أهم موظف لديه، فقام عن مكتبه وجلس في الكرسي المقابل لـ «علي» وأخذ يسأله بتودد وجدية، إذا كان أي شيء يغضبه في الشركة، وأنه مستعد لزيادة راتبه إلى الضعف، وأن كل شيء يمكن التفاهم حوله.

لم يكن «سند» يعرف أن مشكلة «علي» ليست الوجاهة ولا الراتب ولا الحصول على مكانة مميزة في الشركة، بل مشكلته كانت هي الشركة ذاتها، والعمل ذاته. كان ينظر إليه كهزيمة لأحلامه، ودليل على فشله في فعل ما يحب. ولذلك لم تفلح كل إغراءات «سند» في تغيير موقف «علي».

انتشر الخبر في الشركة كالنار في الهشيم بعد ساعة واحدة. ودخل «رامي» بوجه أحمر لكنه لم يجلس كعادته على مكتب «علي» بل وقف وأحنى ظهره واضعًا قبضتيه على سطح المكتب ومقربًا وجهه من وجه «علي» وقال بصوت مرتعش:

– صحيح اللي أنا سمعته ده يا «علي»؟

فهز رأسه تأكيدًا، فتابع «رامي»:

– يعني عملت اللي فـ دماغك، أنا طول عمري بعتبرك صاحبي الوحيد، لكن أنتَ عمرك ما اعتبرتني صاحبك بجد يا «علي»، كنت مجرد زميل في الشركة وواحد بيسليك لما تحب تقعد ع القهوة...

تكهرب الجو في المكتب، كان «علي» يستطيع تطييب خاطره والاعتذار له، لكن كانت كل العيون مسلطة عليهما، فقرر «علي» أن يؤجل نقاشه مع صاحبه إلى وقت آخر. لكن ما زاد الطين بلة، أنه في تلك اللحظة المتوترة تحديدًا دخل «سعيد» بوجه مشرق تطفو الضحكة من كل ملامحه، وقف على الباب متقصعًا مثل امرأة، رافعًا يده اليمنى وواضعًا إياها على حلق الباب، بينما وضع يده اليسرى في جنبِهِ، وقال بصوته اللزج:

– والله هيوحشونا الحبايب.

وهو ينظر في عين «علي» كأنه هو مثلًا الذي فصله من الشركة وكأنه لم يقدم استقالته وكاد صاحب الشركة أن يقبّل يده حتى يستمر معهم.

تجاهله «علي» ونظر في شاشة اللابتوب، واعتدل «رامي» في وقفته وغير من نظرته المتجهمة، فهو يعرف كم كان «سعيدٌ» يكره «علي»! ولن يجعله يشمت بهذا التشاحن الحادث بينهما الآن، يمكن أن

يحاسب «علي» فيما بعد، لكن أمام غريمه فسيكون في صف صاحبه، ولذلك وبنبرة مختلفة تمامًا، قال «رامي»:

- تحب أعمل لك قهوة معايا يا «علوة»؟

فشكره «علي» ورفض بهز رأسه يمينًا وشمالًا. وحينها اقترب «سعيد» من مكتب «علي» وبسط كفيه على سطح المكتب وتعمد أن يبتسم بطريقة مستفزة –رغم أنه لا يحتاج إلى هذا التعمد فإن ابتسامته وكل ما فيه مستفز بشكل طبيعي ولا يحتاج إلى جهد– وقال له بصوت مائع:

- طب بلاش قهوة.. تحب أجيب لك أنا شربات؟

وهنا ابتسم «علي»، والتفت نحو «رامي» الذي يقف بجواره الآن، وقال له بصوت هادئ:

- عارف يا «رامي»! حاجة واحدة ندمان إني ما عملتهاش من زمان....

فسأله «رامي»، بطيبة واستغراب:

- حاجة إيه يا «علي»؟!

فعاد «علي» والتفت ناحية «سعيد» مرة أخرى، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ثم رد على سؤال «رامي» وهو يرفع يده ويقول:

- إني ما ضربتش ابن الكلب ده.

وصفعه على وجهه صفعة سمعها كل مَن في المكتب. حتى إن «سعيد» ترنح وهو يتراجع إلى الخلف يكاد أن يسقط من قوة الصفعة، لولا أن تداركه الساعي وهو يسقط بين ذراعيه، فأمسكه الساعي وهو يقول:

- اسم الله عليك!

لم يستطع أو حتى يجرؤ على التفكير في رد إهانته، فقد كان ذكيًا بما يكفي ليعلم أن «علي» وفي حالته هذه لن يتردد عن فعل أي شيء به. لذلك تلقى صفعته وهرول نحو مكتب «سند بيه»، لكن سيده كان قد غادر وترك الجرو وحيدًا.

لو قلنا إن هذا كان أسعد يوم مرّ على «علي» منذ سنوات فلن تكون مبالغة، كان سعيدًا بتحرره أخيرًا من قيد وظيفة لم يحبها يومًا، وسعادته أكبر، لأنه أخيرًا عبر عن غضبه بطريقة ترضيه، وقال لم يؤذونه: كفى. واستطاع أن يعاقب واحدًا من الأشرار الذين تعمدوا مضايقته لزمن طويل. كان يحس أنه خفيف، يكاد أن يطير، يبتسم لكل من يقابله يعرفه أو لا يعرفه.

يشعر بطاقة من الحب تغمر قلبه ويود لو يفيض بها على كل من حوله. عندما نتحرر من مشاكلنا وأحزاننا، ونعطي أنفسنا حقها في التعبير عن ذاتها، تصبح أرواحنا أجمل ونستطيع أن نحب بصدق وأن نقدم يد العون بصدق، فإننا لا ننفع أنفسنا ولا من حولنا حين نكبت أحزاننا أو حين نفعل ما لا نحب ونقوم بما لا نريد. كان درسًا جديدًا يتعلمه «علي» وينوي ألا يفرط فيه أبدًا بعد اليوم.

ذهب إلى البيت فتناول غداءً خفيفًا، وقام وقبّل رأس أمه وهو يقول لها:

- تسلم إيدك يا ست الكل.. إيه البامية القمر دي، ولا الرز اللي يجنن.. أحلى أكل من أحلى أم في الدنيا.

استغربت أمه حالته النفسية الرائقة غير المعتادة، فهي لم تره على مثل هذه الحال منذ فترة. فسألته وهي تقلب كفها:

- يا ترى إيه اللي راضيك عننا النهار ده يا سي «علي»؟

فقال لها:

- أنا على طول راضي.. المهم أنتِ ترضي يا ست الكل.

وتركها وذهب إلى الحمّام، ثم ناداها أثناء وقوفه لغسل يديه، وقال:

- على فكرة يا ست الكل.. عندي لك خبر حلو..

- خير؟!

- أنا سبت الشغل وبقيت صايع.

*****

أخيرًا جاء الاتصال الذي كان ينتظره «علي» منذ فترة، أحس بالسعادة والتوتر في نفس الوقت حين رأى اسم الحاج «عبده» على شاشة هاتفه. رد عليه بترحاب صادق، ووجد أن الحاج «عبده» يتحدث إليه بصوت مختلف، ليس في نبرته، ولكن في الشعور الذي يصاحب الصوت، لم يكن ودودًا كعادته، بل كان يبدو حزينًا أو ربما غاضبًا. طلب منه يأتي إلى المنطقة ليلًا ويصطحب معه «خالد».

ورغم حرص «علي» ألا يتأخر على موعد مهم مثل هذا، إلا أنه في الأيام الأخيرة كان يصاحبه سعال قوي، ويشعر بألم في صدره لم تخففه مهدئات السعال. فقرر أن يزور طبيبًا قريبًا من بيته ليصف له دواءً يخفف هذا الألم. لكن الطبيب حين كشف عليه طلب منه أن يقوم بعمل عدة أشعات ليطمئن، فرأى «علي» أنه يبالغ في الأمر ويريد فقط أن يثبت أنه طبيب لديه ذمة، فلم يهتم بما طلبه منه، واكتفى بشراء المسكنات والمضادات التي كتبها له.

تناول الدواء ودخل إلى سريره وضبط المنبه على الساعة السادسة، ليرتاح ساعة قبل أن يذهب إلى «خالد» ليأخذه لمقابلة الحاج «عبده» في الساعة التاسعة. لكنه لم يسمع المنبه وظل راقدًا طيلة الليل، ولم يستيقظ إلا عند الساعة الثانية فجرًا، إذ كان الدواء ثقيلًا ومن أعراضه كثرة النوم.

قام فزعًا، فإن الحاج «عبده» ليس الشخص الذي يمكنك أن تفوت موعده وتشعر بعدها بالراحة أبدًا. ولكن ما حدث قد حدث. وزاد قلقه عندما رأى على هاتفه أن هناك ثلاث اتصالات فائتة من الحاج «عبده» وسبع وعشرين اتصالًا من «الصمطي»!

لولا تأخر الوقت لكان اتصل به في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لكنه قال لنفسه لننتظر حتى الصباح ونرى ماذا سنفعل حينها.

في صباح اليوم التالي، أحس بتحسن كبير، وخف سعاله كثيرًا، فقرر أن يذهب لرؤية «خالد» الذي لا يرد على اتصالاته، لكنه قرر أولًا أن يتصل بالحاج «عبده» يعتذر له عن موقف أمس. اتصل به ثلاث مرات ولم يتلق ردًّا، فعلم أن الحاج غاضب مما حدث. فقرر أن يتصل بـ «الصمطي»، فرد عليه من أول اتصال، وبادره قائلًا:

- بقى ده اسمه كلام يا «عم علي»؟ بقى حد يعمل كده يا راجل مع الحاج «عبده».. خليت شكلي وحش يا أستاذ قدام الكبير بتاعنا.. إزاي ما تجيش في معادك يا راجل!

- صبرك عليَّ يا «صمطي».. أنا كنت عيان ومش قادر آخد نفسي.. ورحت لدكتور إداني علاج ما عرفش فيه إيه.. نيمني زي القتيل طول الليل.. وحتى والدتي كانت بتقول لي إنها كانت كل ما تدخل عليا تلاقيني بهلوس وانا نايم رغم إني ما كنتش سخن.. الخلاصة.. كان غصب عني.. ودلوقتي بتصل بالحاج ما بيردش عليَّ.

- خلاص.. سيب لي أنا الحكاية دي وأنا هفهمه اللي حصل وهظبط لك المسائل..

شكره «علي» وقبل أن يغلق الهاتف استوقفه «الصمطي» بصوت متحشرج وهو يقول له:

- صحيح بقولك إيه والنبي يا غالي.. هو الدوا ده خلص ولا لسه عندك؟

- لا لسه موجود طبعًا.. أنا يا دوب خدت منه معلقة وحتى مش ناوي أشرب منه تاني.

- طيب فل الفل.. الدوا ده لازمني يا ريس.

ضحك «علي» بعدما فهم سر طلبه الغريب، بعدما دخل على «جوجل» وعلم أن هذا الدواء مجدول ضمن أنواع المخدرات.

اقترب اليوم من منتصف الظهيرة، و«علي» في البيت لا يجد ما يفعله، سوى مناكفة أمه له وهي تلوم عليه قراره بترك العمل كلما مرت به، عاتبته على الإفطار، ثم أخذت تحدث نفسها بصوت مرتفع متعمدة ذلك ليسمعها وهي تغسل بعض الأطباق في المطبخ قائلة: «ما هو لو ما كنش ساب مراته تمشي كانت عرفت تعقله.. بدل ما يعمل حركات ما يعملهاش عيل صغير.. قال يسيب الشغل قال»! أراد «علي» أن يتخلص من هذا التوتر والمحاكمة التي لا نهاية لها، فقرر أن ينزل إلى المقهى، بعدما ترك رسالة لـ «خالد» يخبره فيها أنه سيكون في انتظاره هناك.

جلس على المقهى لساعتين، غارقًا في أفكاره، يشعر بالسعادة للتغيرات التي حدثت في حياته، والخطوات الشجاعة التي اتخذها، كما يشعر بالثقة في القرارات التي سيقوم بها مستقبلًا، أصبح أكثر ثقة بنفسه، يدرك جيدًا ما يريد، كان يتخيل وجه «سما» وهي تبتسم وتفتح له ذراعيها عندما يخبرها أنه قرر السفر معها إلى دبي، وكان واثقًا أن قراره سيجعلها تُقدّر ما فعله وتتفهم أن له حياته وقراراته الخاصة أيضًا وعلى رأسها الرجوع إلى ممارسة العمل الذي يحبه ويجد فيه نفسه، فإذا كان ترك عمله لأجلها، فلا بد أن تحترم رغبته في القيام بما يحب.

كان واثقًا أن كل شيء سينصلح ويتجه إلى الأفضل. وبينما هو في غمرة أفكاره رن هاتفه، أمسك الهاتف وهو يتوقع أن يجد اسم «خالد»، لكنه فوجئ أنها «سما»، وأحس أنها إشارة قدرية طيبة. رفع الهاتف إلى أذنه وقال بصوت مبتهج:

- سما! ازيييك.

فردت عليه بصوت محايد:

- أهلًا يا «علي».. ازيك. ممكن أشوفك النهار ده.

- آه طبعًا أنا أصلا كنت لسه هكلمك حالًا..

- والله؟! طيب وما كلمتنيش ليه؟

- لا أبدًا بس كنت بخلص شوية حاجات كده.. وقلت استنى لما تخلصي شغلك عشان تبقي براحتك.

- أنا واخدة أجازة وقاعدة في البيت مش في الشغل.. يا ريت تجيلي النهار ده عند ماما، لو وقتك يسمح عشان عاوزة أتكلم معاك في موضوع مهم.

- آه طبعا يسمح.. تحبي أجي لك إمتى؟

- دلوقتي لو أمكن.

- ماشي.. مسافة السكة وهكون عندك.

اتصل بـ «خالد» مرة أخرى، ليرى إن كان سيأتي أم لا. لكنه لم يرد على اتصاله. فطلب من القهوجي أن يخبر «خالد» إن هو جاء، أنه ذهب لمشوار مهم، وأن يتصل به فور قدومه.

توجه بعدها نحو الزمالك، وفي الطريق اشترى باقة ورد، وذهب إلى بيت حماته. استقبلته فاتن والدة «سما» بترحاب غامر، وأمسكت يده ودخلت به إلى الصالة، وهي ترفع صوتها مرحبة به:

- أهلًا يا «علي» يا بني.. نورت الدنيا يا حبيبي.. إيه الورد الحلو ده.

تلقت «سما» صوت أمها، وعرفت بقدوم «علي» كانت تلبس «شورت» قصيرًا و«بادي كت»، فقامت بتغيير ملابسها، كأنها تقابل رجلًا غريبًا وليس زوجها. لبست بنطالًا من الجينز و«تيشيرت» واسعًا وعقصت شعرها سريعًا، دون أن تضع أي زينة على وجهها. كانت تريد أن تبدو محايدة تمامًا وجادة في مظهرها، وقد اتخذت قرارها الأخير منذ أمس، وقررت ألا تتراجع خطوة واحدة إلى الخلف.

خرجت إليهما، فصافحت «علي» وتركت مساحة معقولة بينهما حتى لا يفكر في عناقها. عندما لاحظ طريقتها الجافة، قرر ألا يخبرها بنيته في السفر معها أو أنه ترك عمله بالفعل استعدادًا لهذا، وأدرك أنها لم تتصل به لأنه أوحشها كما كان يظن، بل هناك أمر آخر، وعليه الآن أن ينتظر ولا يلقي ما في جعبته قبل أن يستمع إليها. ومع ذلك أراد أن يبدأ ببادرة سلام فقال لها:

- وحشتيني يا «سما».

فأجابته ببسمة مفتعلة:

– فعلًا؟! فيك الخير والله.

– "«سما» أنتِ مراتي.. وأنا بحبك.. وأنتِ عارفة ده كويس.

– أنا ما بقتش عارفة حاجة.. أنا اللي كلمتك مش أنت.. ومع ذلك مش مهم.. اللي أعرفه دلوقتي هو إننا لازم نحط النقط فوق الحروف..

– وإيه هي النقط اللي عاوزة تحطيها يا «سما»؟

– إنك تفهم كويس إني مش هضيع مستقبلي عشان خاطر حضرتك مش عاوز تسيب شغلك اللي أنتَ أصلًا كنت على طول بتشتكي منه وبتقول ما بتحبوش.

– والله؟! شغلي بقى وحش دلوقتي لما اتعارض مع مصالحك! مش ده الشغل اللي قلتِ لي إنه مستقبلي.. واللي خلتيني اتخلى عن حلمي في الصحافة والكتابة وأقنعتيني إن ما لهاش مستقبل ولا منها فايدة.

– طيب كويس إنك عارف إن رأيي كان دايمًا هو اللي صح، وإن نصيحتي أنقذتك من أحلام اليقظة بتاعتك ووصلتك لشغلانة حقيقية تكسب منها.. ودلوقتي أنا بنصحك تاني.. وبقولك سيب الشغل ده وتعالى معايا دبي وهناك هتلاقي شغل أحسن ومستقبل أفضل.. أنا عارفة كويس أنا بقول إيه.

– متأكد إنك عارفة كويس أنتِ بتقولي إيه.. لكن يا ترى عمرك حاولتِ تفكري في أنا بقول إيه.. أو عاوز إيه؟!

– أنا ما كلمتكش عشان أدخل في الحوار ده.. أنا كلمتك عشان أوضح لك قراري الأخير.. وأسمع منك قرارك.. أنا هسافر دبي.. هتيجي معايا؟ آه أو لأ؟

حاولت أمها أن تتدخل لتهدئ الجو، فقالت متوجهة نحو ابنتها بعتب واضح:

– ايه الكلام ده يا «سما».. بقى ده اسمه كلام يا بنتي.. ما ينفعش تتكلمي كده مع جوزك...

فأوقفها «علي» بإشارة من يده قائلًا:

– سيبيها يا طنط.. «سما» من حقها تقول اللي هي عاوزاه طبعًا.. ومش من حقي أعترض على قراراتها وأحكامها.. ده أنا حياالله جوزها..

ثم توجه إلى «سما» بوجه يعاني صاحبه من أشد الحسرة، ورغم ذلك ظل محتفظًا ببسمته:

– ها يا «سما»! عاوزة تقولي حاجة تانية ولا خلصتِ كلامك؟

– لا.. خلصت كلامي.

– تمام.. وطبعًا مستنية تسمعي مني آه أو لأ.. اللي طلبتيها مني.

– بالظبط.

– مممم الرد بكلمة واحدة.. آه.. أو لأ.. بس أنا عندي رد تاني من كلمتين.. مش كلمة واحدة..

نظرت إليه بوجه مستفهم وقد رفعت حاجبها الأيسر.. فلم يتركها تنتظر كثيرًا وألقى بصاعقته الأخيرة قبل أن يخرج من الشقة:

- أنتِ طالق.

21

رغم الألم الرهيب الذي أحس به، إلا أنه في نقطة بعيدة من عقله، كان مقتنعًا أن هذه هي النهاية الصحيحة. كان يشعر بضميره مرتاحًا تمامًا، فقد ذهب إليها وهو على استعداد للتضحية بكل شيء من أجلها، بل وفعل هذا بالفعل، لكنه وجدها كما هي، تأمر وتنهي ولا تفكر إلا في مصلحتها. لو أنه أخبرها أنه بالفعل ترك عمله وقرر السفر معها، فماذا كانت ستفعل معه؟ كانت ستزداد أنانية وتتوحش أكثر في استغلال حبه لها، وتحتل كل مساحاته الخاصة. حمدَ الله كثيرًا أنه استمع إليها وأنها أخرجت ما في قلبها قبل أن يبوح لها بما كان قد قرره بالفعل.

على الجهة الأخرى، كانت «سما» مقتنعة هي الأخرى أنها اتخذت القرار الصائب، وأنها لو ضيعت فرصة عمرها لأجل الحفاظ على زوجها لكانت خسرت الاثنين معًا، فها هو قد تخلى عنها بكل بساطة رغم أنها لم تطلب منه ذلك، لكنه وبمجرد أن وضعته بين اختيارها أو اختيار مصلحته اختار مصلحته وتخلى عنها.. «ما الفرق بينه وبين أبي! هل لأنه لم يضربني مثلما كان يفعل أبي مع أمي.. لكن أليس تخليه عني ووقوفه أمام مستقبلي ضربًا أشد ألمًا وقسوة..» هكذا كانت تحدث نفسها، لتبث الطمأنينة في قلبها بيدها، وترتاح لما فعلته.

عندما أخبر «علي» أمه أنه طلق «سما»، نزل عليها الخبر كالصاعقة واستدعى أبشع مخاوفها القديمة، وأدركت أنه كما ترك زوجته بسهولة فيمكنه اليوم أن يتخلى عن أي شيء، أخيرًا فهمت أن الإنسان يمكن أن يتغير من تراكم القسوة على قلبه ممن حوله.

وبالفعل ترك «علي» شقتها، ولكن ليس غضبًا من أمه ولكن من أجل محاولة أخيرة مع صديقه «خالد»، فقد علم أنه عاد إلى الشرب بنهم مثلما كان، فقرر أن يذهب إلى شقته ويقيم معه، وأخبره بوضوح:

- أنا هفضل جنبك يا «خالد» ومش هزهق منك، لإنك صاحبي بجد، وأنا عارف إن معدنك نضيف.. بس لو ما ساعدتنيش على إنك تفوق أنا هسيبك لراحتك.

وبالفعل ظل «علي» مقيمًا مع «خالد» في شقته، يرعاه أتم الرعاية، حتى استرد صحته، وتحسن كثيرًا. وبعد أسبوعين من الصمت جاءه أخيرًا اتصال من «الصمطي» يخبره أنه تكلم مع الحاج «عبده» وأنه أذن له بالزيارة، مع صاحبه «خالد».

استبشر «علي» بموافقة الحاج «عبده» على الزيارة بصحبة «خالد» وليس منفردًا كما كان يطلب منه دومًا، فمعنى طلبه قدوم «خالد» أنه قد توصل إلى شيء في حل مشكلته.

عندما وصلا إلى مدخل المنطقة، وجدا «الصمطي» في انتظارهما، ركبوا جميعًا توك توك وصلّهم إلى نقطة محددة كالعادة، ثم ذهبوا معًا إلى الحاج «عبده»، لكن هذه المرة كان اللقاء في المقهى وليس في المنزل.

دخلوا عليه فألقوا السلام فرد عليهم الحاج وهو مطرق إلى الأرض وعليه حزن واضح. ثم أشار إليهم بيده أن يجلسوا، فاتخذوا مقاعدهم من حوله.

وبدون مقدمات دخل الحاج «عبده» مباشرة في الموضوع كأنه على عجلة من أمره:

- شوف يا أستاذ «خالد».. إحنا عملنا كل اللي ربنا قدرنا عليه.. بس مالكش نصيب في فلوسك، الواد ابن الحرام اللي ضحك عليك، راح بالفلوس مرسى مطروح وشارك بيها واحد من كبارات البلد هناك في قرية، طبعًا مشاركة بسهم صغير بالنسبة لفلوس الحيتان دول.. المهم.. مش دي القضية.. القضية إن الواد «عُمر» ده من شهر اتخانق مع واحد من عرب مطروح، والظاهر صاحبك كان سكران قام ضرب الراجل «العرباوي» بحديدة على نافوخه طب ساكت.. طبعًا هو عرف إنه كده حفر قبره بإيده.. لو قتل وزير كان ممكن ياخد حكم مخفف.. إنما يلمس شعره من «عرباوي» كدة يبقى إعدام.. ودول ما عندهومش محاميين.. هو الحكم يطلع يتنفذ.. الواد «عمر» عارف بكده.. فخد بعضه وهرب على ليبيا.. وده من وساخة مخه اللي ربك سلطه عليه.. ليبيا كلها منفدة على عرب مطروح.. ما حدش من وقتها سمع عنه حاجة.. باختصار اعتبره مرمي في أي بير ولا حفرة في ليبيا.. كدة أمره انتهى.

ثم سحب نفسًا عميقًا من الشيشة التي كركرت في صمت المقهى وذهول الجالسين، وكأنه تذكر شيئًا تافهًا غاب عنه، فقال مستدركًا:

- آه صحيح.. وإحنا بندور ورا الواد ده عرفنا إنه كان معاه دايما بت مزيكاتية.. ومن رجالتنا عرفنا انها مقلّباك في عربية هي كمان.. البت دي بعد ما «عمر» سابها وهرب على ليبيا رجعت القاهرة هنا.. وشغالة آلاتية في شارع الهرم.. لو يهمك أمرها.. عشان إحنا ما بندخلش في شغلانة المطلوب فيها نسوان.. وبالنسبة للأتعاب.. براءة. رفعنا القعدة.

عندما نطق بالجملة الأخيرة انتفض «الصمطي» من مكانه، ونظر بتوتر إليهما وهو يقول بعصبية:

- يلا يا أساتذة.. يلا بينا.

فقاما من فورهما معه. وعندما ابتعدا عن المنطقة بعدما ساروا طويلًا بصمت كامل كأنهم في جنازة، أخيرًا تكلم «الصمطي» كأنه استعاد روحه وشعر بشيء من الأمان بعيدًا عن موقع الحاج، وقف في قبالتهم وقال لهم:

- معلش أنا قومتكم بطريقة مش حلوة.. لإن الحاج زي ما شوفتم مزاجه ما كنش حلو أبدًا.. دي أول مرة في حياتي أشوفه قاعد في القهوة من غير «ورد».. وكمان لما يقول «رفعنا القعدة» فدي معناها إنه مش عاوز يشوف وش بني آدم قدامه.. والكل لازم يخفى في الحال والتو... الحاج مزاجه وحش قوي بقاله كام أسبوع من ساعة مصيبة «الرويعي»...

انتفض، «علي» عندما سمع اسم «الرويعي»، فهو يعرف جيدًا أنه زوج «سكينة»، لا بد أن كارثة قد حدثت، هل يمكن أن يكون «الرويعي» عرف بوقوفه معها عدة مرات ففعل بها شيئًا! ولكن كيف هذا وهو كان يقف معها في منتصف الطريق أمام الناس كلها ولم يكن في الأمر ريبة! لم يحتمل الظنون، فسأل «الصمطي» بتوتر:

- إيه حكاية «الرويعي»؟ حصل إيه يا «صمطي» طمني..

فقال له الصمطي:

- سيبنا من «الرويعي» دلوقتي يا أستاذ «علي»، وخلينا في الأستاذ «خالد».. أظن كدة عداني العيب وأزح يا أستاذ «خالد».. ساعدتك لحد آخر نقطة في جهدي.. والحج ما قصرش معاكم.. بس هو النصيب اللي طال الواد ده قبل ما إيدنا تطوله.. كدة أنا تمام.

هز «خالد» رأسه بعدم مبالاة وقال له:

- تمام.. متشكرين يا «صمطي».

الغريب أن «خالد» كان أقلهما حزنًا كأنهما هما أصحاب المال وليس هو، بل كان على وجهه شبح ابتسامة منذ سمع من الحاج «عبده» أن «سالي» موجودة في القاهرة، بل ويعرف مكان عملها.

بعد أقل من أسبوع من طلاقهما كانت «سما» قد أتمت كل أوراق السفر، وحزمت حقيبتها، استعدادًا للسفر. عندما اتصل بها «علي» يخيرها بين أخذ عفشها أو أن يدفع ثمنه، أخبرته بهدوء أنها ستسافر ولا تريد أن تزحم بيت أمها، وطلبت منه أن يدفع ثمنه لأمها، وفي الحقيقة لم تحدد له موعدًا ولا حتى حددت ثمنًا معينًا لمستحقاتها. كان الانفصال سهلًا جدًّا.. كأنه لم يكن هناك حب وتضحيات وعمر مضى!

ظل «علي» طيلة الأسبوع مرافقًا لـ «خالد»، كان يخشى أن تصيبه صدمة ضياع أمواله إلى الأبد، بالعودة إلى شرب الحشيش والخمور. لكنه لاحظ أن «خالد» بخير، بل صحته تتحسن وأصبح أكثر نشاطًا، لدرجة أنه لاحظ أن «خالد» يخرج بشكل يومي ويغيب لساعات دون أن يقبل مصاحبة «علي» له، وفي كل مرة يتحجج بأنه يحب أن يتمشى منفردًا ليريح أعصابه.

وفي النهاية تركه «علي» عندما أشار «خالد» بلطف أنه لم يعد يريد إقامته معه، حين قال له:

- أنا خايف الحاجة تزعل من وجودك هنا وأنت سايبها لوحدها.

فهز «علي» رأسه وقال له:

- عندك حق يا صاحبي.. أنا طولت عندك.. وكمان الحجة وحشتني.

وفي نفس الليلة حزم حقيبة صغيرة تحوي ملابسه وعاد إلى شقة والدته. لم يغضب من «خالد»، لكنه كان يعرف أنه يخفي عنه شيئًا، ويخبره قلبه، أن «سالي» هي هذا الشيء، لكنه لم يشأ أن يسأله ما دام لم يخبره بنفسه وأخفى الموضوع عنه. وفي نفس الوقت كان يشعر أنه بحاجة إلى أمه لأن سعاله أصبح يشتد عليه كل ليلة، ولا تفعل المهدئات معه أي شيء، و«خالد» لا يحسن رعاية نفسه فكيف سيرعاه أو يعد له سوائل ساخنة أو طعامًا مناسبًا. ولذلك عاد إلى والدته راضيًا.

اشتد التعب عليه لأسبوع، مما منعه من مشوار كان يريد أن يقضيه للضرورة، فقد كان يريد أن يذهب إلى «الصمطي» ويستفهم منه عن حكاية «الرويعي» التي ذكرها آخر مرة، لكن حالة صدره منعته من ذلك، وعندما شعر بشيء من التحسن قرر أخيرًا أن يذهب إليه.

عندما رآه «الصمطي» أصابه الفزع وشعر بحزن صادق، إذ فَقَدَ «علي» الكثير من وزنه وكان التعب باديًا عليه، فسحب «الصمطي» كرسيًا سريعا وأجلسه وهو يسأله:

– مالك يا غالي ألف سلامة.. شكلك ما يريحش.

– ما تخافش يا عم في إيه.. ده هما شوية كحة.. المهم أنا جايلك في موضوع عاوز أفهمه.

جلس «الصمطي» بجواره قرابة الساعة بعد انتهاء ورديته، وحكى له ما حدث في فترة تغيبه عن المقهى. وهي نفس الفترة التي انشغل فيها «علي» بإنهاء مشروع الدعاية، ولم يكن يذهب للحاج «عبده» لأنه لم يتصل به ويدعوه للزيارة كالعادة، وبالتالي لم تتح له الفرصة لرؤية «سكينة». أخبره «الصمطي» أن «سكينة» ذهبت من وراء الحاج «عبده» إلى أحد المحامين للدفاع عن زوجها، وأن المحامي استطاع أن يخرجه مؤقتًا بكفالة كبيرة، دفعتها «سكينة» عن طريق الدين والاقتراض من كل مَن تعرف ولا تعرف. لكن «الرويعي» أول ما خرج بدلًا من أن يبحث عن حل لمصيبته ويذهب للحاج يستسمحه أنه تاجر في المخدرات رغم أنه أصدر أمرًا بعدم المتاجرة فيها، إذا به يذهب إلى «حمادة» الذي أبلغ عنه الشرطة، فترصد له «الرويعي» وهو عائد ليلًا وغرز مطواة في عنقه، فسقط ميتًا. وانقلبت المنطقة رأسًا على عقب، واقتحمت الحكومة حرم الحاج «عبده» الذي كان محرمًا أن تدوسه رجل الغرباء، فإذا بكل رجال الشرطة يدخلون المكان، ويستجوبون الجميع سين وجيم، وتم القبض على «الرويعي» مرة أخرى.

استمع «علي» إلى ما يقصه «الصمطي» على مسامعه وهو مكتئب حزين، ليس لشيء إلا لمستقبل «سكينة»، وسأل «الصمطي»:

– طبعا الحاج هو اللي هيرعى «سكينة» بعد سجن جوزها تاني وبعد ما بقت مديونة لطوب الأرض.. مش كدة ولا إيه؟

فالتفت إليه «الصمطي» وهو يضحك من سذاجة تفكير «علي» ورد عليه:

– يرعاها؟! دي اتنصبت لها محكمة خصوصي، بعد ما موضوع «الرويعي» خلص بيومين. والحج حكم عليها إنها يا تمشي من المنطقة كلها.. يا تقضي عمرها خدمة في البيوت.. يا تتجوز واحد من المجاذيب.. يا تستنى قدر ربنا.

أصاب الفزع قلب «علي» عندما سمع بهذه الاختيارات المرعبة التي قررها الحاج على «سكينة». وأخذ يبحث عن موضوع «الرويعي» الذي أشار «الصمطي» إلى انتهائه. اتصل «علي» بأحد أصدقائه القدامى وهو ضابط شرطة في القسم القريب من منطقة الحاج «عبده». استغرب صديقه في البداية أن يسأل «علي» عن مجرم مثل «الرويعي»، ثم أخبره أنه بعد القبض عليه بأربعة وعشرين ساعة، قامت مشاجرة داخل الزنزانة بين المساجين، وقام أحدهم بذبح «الرويعي» بشفرة موسي.

كان «علي» واثقًا أن هذا من تدبير الحاج «عبده»، عقابًا له. وبالفعل كان هذا ما حدث، لكن «علي» لم يعرف بالتفاصيل. فقد غضب الحاج «عبده» أشد الغضب لحدوث عدة مخالفات لقوانينه، بدأت بأن

ذهبت «سكينة» إلى المحامي دون إذنه أو مشورته، ثم قتل «الرويعي» لـ «حمادة»، ثم دخول الشرطة المنطقة. ورأى أن الأمر خرج عن السيطرة ولا بد من إحكام القبضة مرة أخرى، أولًا لقطع الطريق على القيل والقال، وثانيًا –وهو الأهم– ليعطي درسًا للجميع أنه لا يمكن مخالفة أمره دون عقاب. فأرسل من يقتل «الرويعي» في محبسه، حتى تتوقف القضية كلها قبل أن تبدأ، وليعطي الجميع رسالة خلاصتها؛ أن يده باطشة لكل من يخالف أمره. وكان نصيب «سكينة» في الأحكام التي رددها «الصمطي» على مسامع «علي».

*****

ظل «خالد» يبحث عن «سالي» يوميًّا في بارات وكباريهات شارع الهرم، حتى توصل إليها أخيرًا. كان ينتظرها أمام أحد الكباريهات بعدما عرف أنها تذهب إليه كل خميس وجمعة وتعزف به حتى الفجر. عندما رأته أمام باب الكباريه صرخت، فهرول «البادي جارد» الخاص بالمكان إليها وأمسك بـ «خالد» من رقبته بقبضة كادت أن تكسرها. لكن «سالي» صرخت فيه:

- سيبه.. سيبه.. ده خطيبي.

بمجرد أن رأى «خالد» دفاعها عنه ونعتها له بكلمة «خطيبي»، نسي كل شيء. بل في الحقيقة هو منذ البداية لم يكن يحمل لها في قلبه أي ضغينة إلا هروبها منه، وكان مستعدًا طوال الوقت لمسامحتها إن هي عادت إليه.

أخذها إلى شقته، وحكت له ما حدث منذ هربت بالسيارة، وأخبرته أنها هربت منه لأنها لا تليق به، وقالت له إن «عمر» هو من ساعدها على الاختفاء، وأقسمت له أنها لم تكن تعرف أنه سرق ماله حتى آخر لحظة. وسواء أكانت صادقة أو كاذبة فيما تقول فإن «خالد» كان على أتم الاستعداد لتصديق ما تقول.

ظلت «سالي» مقيمة عند «خالد» لمدة أسبوع، وأعطته العهود على أنها لن تهرب منه مرة أخرى. وقرر أن يتخذ خطوة حاسمة ليضمن بقاءها، فاتصل بوالدته وأخبرها أنه سيتزوج، هذا فقط كل ما قاله لها، دون أي تفاصيل، ودون أن تعرف من هي زوجة ابنها. وبالفعل بعد يوم واحد من إخباره لأمه كان يجلس أمام المأذون ويعقد قرانه على «سالي»، بشهادة شاهدين غريبين، لأنه لم يمتلك الجرأة ليخبر «علي» بما فعل، وطبعًا لا يستطيع أن يطلب منه أن يكون الشاهد على زواجه من المرأة التي سرقته وهربت مع الرجل الذي سلبه كل ماله.

الحقيقة أن «علي» كان هو الآخر غارق في قضية أخرى، أنسته «خالد» ومصيبته؛ إذ أصبح كل همه أن يمد يد العون لـ «سكينة»، وينقذها من أحكام الحاج «عبده» مهما كلفه الأمر.

وبالفعل قرر أن يذهب بنفسه إلى عرين الأسد، كان يعرف أن الحاج «عبده» لا يحب من يحاول خداعه وأنه يحترم الصدق. ذهب إليه دون اتصال أو وساطة من «الصمطي»، كان ماضيًا في قراره دون التفات أو تفكير، حتى وجد نفسه يقف على باب «مقهى الغنيمي»، والحاج «عبده» أمامه وجهًا لوجه.

تبسم له «الغنيمي»، وقد بدا في مزاج جيد غير الذي رأوه عليه في آخر مرة وهو يخبرهم بضياع أموال «خالد» إلى الأبد. تهللت ملامح «ورد» عندما رأته وذهب «علي» إليها وسلم عليها بحرارة، فمسح الحاج «عبده» على رأس ابنته ثم قال:

- أهلًا بالناس الكريمة ولاد الأصول.. اتفضل يا أستاذ علي.

جلس «علي» صامتًا لا يعرف من أين يبدأ فطلب له الحاج «عبده» شايًا ثم مال إليه وهمس في أذنه:

- شكل الموضوع اللي أنت جاي لي فيه المرة دي حساس.

فتبسم «علي» وتشجع على الكلام بعدما أحس بالألفة مرة أخرى ناحية «الغنيمي». وقال له بصوت مرتعش لكنه يعرف ما يقول:

- والله يا حج أنا عاوز أكلمك في موضوع العقل والمنطق بيقولوا إني ما ليش علاقة بيه.. بس أنا في الحقيقة ليَّ علاقة.. ويهمني أكتر ما أي حاجة تانية تهمني.

فأخذ الحاج نفسًا طويلًا من الشيشة، ونفثه إلى أعلى ثم قال دون أن يلتفت إليه:

- مممم ما دام ما لكش علاقة بيه وفي نفس الوقت ليك علاقة بيه.. يبقى «سكينة»!

ثم التفت إليه ببسمة معناها «أنا أعرف كل شيء». وقال:

- مظبوط يا أستاذ «علي».. ولا إحنا تلامذة!

تنحنح «علي» وشعر بدوار كمن تم القبض عليه متلبسًا، وقال:

- حاشا لله يا حاج.. ما حدش يقدر يقول عليك غير سيد المعلمين وأبو المفهومية.. بس أنا والله نيتي خير.

- ما هو عشان أنا عارف إن نيتك خير مخليك قاعد لحد دلوقتي قدامي وروحك جوة جسمك. بس إحنا أحكامنا ما بتتغيرش يا أستاذ «علي».

فسأله بتوتر وصوته قد بدأ يفقد تماسكه:

- ينفع أسألك يا حاج إيه هي الأحكام دي؟

رغم أنه سمع الأحكام من «الصمطي» سابقًا لكنه خاف أن يُظهر ذلك، حتى لا يقوم الحاج «عبده» بمحاسبة «الصمطي» بقسوة على إفشاء سر الأحكام.

ضحك الغنيمي بقوة من سؤال «علي» وقال له بصوت مرتفع :

- أهو عشان جدعنتك دي بحبك.. قلبي بيميل للراجل الجدع وافديه بروحي حتى لو ما عرفوش.. يعني رغم إن الواد «الصمطي» قالها لك، عامل نفسك ما تعرفهاش عشان هو ما يتأذيش.. خسارتك إنك مش من رجالتي والله.. اسمع يا «علي» يا بني.. إحنا ما بنبعش نسوانا.. نحاسبهم آه.. لكن نفضل نرعاهم ولو من بعيد.. قولي مرادك إيه في «سكينة»؟

لم يكن «علي» يعرف أصلًا ما الذي يريده منها، فسعل بقوة، لدرجة أن «الغنيمي» توقف عن شرب الشيشة مراعاة لسعاله الجاف الشديد. وجد «علي» نفسه يخبر «الغنيمي» بأريحية بما حدث له مع زوجته في الفترة الأخيرة وانتهاء الأمر بطلاقهما، ثم طلب منه أن يسمح له بأخذ «سكينة» وابنتيها الصغيرتين إلى شقته وأكد له أنه سينتقل للعيش في شقة أمه، وأنها ستكون في الحفظ والصون، وقد يجعل الله بعد ذلك أمرا. قال ذلك بناء على أن أحد الاختيارات التي أعطاها «الغنيمي» لـ «سكينة» أن تخرج من المنطقة كلها. فأطرق «الغنيمي» لدقيقة يفكر، ثم رفع رأسه وقال:

- تمام.. عجبني القول.. وأهو تكون في بيت نضمن إن صاحبه شهم.. بس يوم ما نفسك تميل يا ابن الناس.. يبقى بالحلال.. وتجيلي هنا تطلبها مني.. وأنا أجهزها من مجاميعه.. آمين؟

فانفرجت أسارير «علي» وتهلل وجهه وقال:

- آمين.

كأنه شاب صغير ذهب إلى خطبة حبيبته التي اختارها من وسط العالم، هكذا كان يحس «علي» بعد انتهاء لقائه بـ «الغنيمي»، لم يفكر فيما سيقوله لأمه عن هذه المرأة التي قرر أن يمنحها شقته، لتسكن فيها مع طفلتين أبوهما كان تاجر مخدرات وانتهى به الأمر قتيلًا، ولا فكر في موقف «سما» لو عرفت بما حدث، في الحقيقة لم يكن يفكر، بل كان فقط يُحس.

كان قلبه هو صاحب القرار، وقد اتخذ القلب قراره. أول ما فعله بعد ذلك، اشترى لـ «سكينة» هاتفًا، لتتصل به إذا كانت في حاجة إلى أي شيء. ورغم أنها رفضت مساعدته بكبرياء واضح، إلا أنه ألح عليها حتى رضيت بعدما قال لها أن كل هذا دَيْن، ويمكن أن ترده بعدما تدبر أمرها وتجد عملًا مناسبًا. وكانت سعادته لا يقارنها شيء، عندما استوقفته عند باب الشقة ونظرت في عينه نظرة دافئة، وقالت:

- يا ريت كل الرجالة زيك، ما كنتش في ولية تتذل.

ثم أحنت رأسها أمامه خجلًا وامتنانًا.

أصبح يتصل بها يوميًّا ليطمئن على حالها ويأتيها بما قد تحتاج إليه. أخبرته أن الحاج «عبده» قد أعطاها مبلغًا كبيرًا من المال وأنها لا تحتاج شيئًا وأن ما معها يكفيها لسنة كاملة، لكن «علي» أصر على أن يوفر لها كل احتياجاتها.

كاد أن ينسى «خالد» في غمرة سعادته بوجود «سكينة» في حياته، رغم أنه لا يعرف حتى اللحظة لماذا يفعل ما يفعله، ولا يدري هل هي شفقة أم حب أم شكر لأنها منحته شعورًا لم يحس به طوال حياته. اتصل بـ «خالد» وعلم بآخر أخباره فقام بمقابلته. كان «خالد» يتوقع أن يهاجمه «علي» بقسوة حين يعلم أنه تزوج من «سالي»، لكنه تفاجأ بموقفه المتفهم. شيء ما تغير فيه، أصبح أكثر تقبلًا لكل ما حوله، ولا يريد أن يحكم على أي أحد مهما كانت أخطاءه أو ماضيه. خاصة بعدما عرف أن «سالي»

تركت العمل وجلست في البيت تجاهد نفسها للامتناع عن الإدمان، وأن حالتها تحسنت كثيرًا بالفعل.

فتبسم «علي» في وجه «خالد» وقال له:

- يعني كدة أضمن إني لما أزورك في البيت هلاقي أكل نضيف بدل الساندوتشات اللي كنت هاري بطني بيها وأنا عندك.

فاحتضنه «خالد» وضمه بشدة، فرحًا بتقبل صاحبه له، ولاحظ أنه ما زال يسعل، فقال له:

- حكاية الكحة دي طولت قوي يا «علي».. ما تشوف إيه الموضوع يا بني.

فتبسم له وقال:

- ما تقلقش.

كانت مصادفة غريبة عندما التقت «سما» مع «رامي» الذي أرسله «سند» صاحب الشركة إلى دبي ليشارك في أحد المؤتمرات هناك مندوبًا عن الشركة.

بعد نهاية الجلسة الأولى، دعته «سما» إلى تناول فنجان قهوة في أحد الكافيهات، وكانت سعيدة بأن رأت أحدًا تعرفه من الدائرة المقربة لحياتها في مصر، أو بمعنى أوضح قريبًا من دائرة «علي». بعد حديث قصير أخبرها «رامي» كيف كان حزينًا لانفصالها عن «علي» وعتب عليها أنها تركته بعدما ضحى لأجلها بكل شيء.. وهنا استوقفته «سما» قائلة:

– كل شيء إيه؟ ده أنا بمجرد ما قلت له هاتيجي معايا ولا لأ.. قال لي أنتِ طالق يا «رامي»!

– بس «علي» بالفعل من قبل ما يجي لك وهو كان قايل لي إنه هيسافر معاكِ دبي وهيقعد سنة ولا اتنين لحد ما تخلصي مهمتك وبعدها يرجع مصر يشتغل في الصحافة.

– كلام.. كلام بيقوله عشان يبان قدامك ضحية.

– لا يا «سما» مش كلام.. «علي» قدم استقالته من الشغل وهو في أعلى أوقات نجاحه.. وصاحب الشركة عرض عليه ضعف المرتب.. و«علي» اللي رفض وقال له أنا هسافر مع المدام دبي ومش هينفع أسيبها لوحدها.. صاحب الشركة بنفسه هو اللي حكى لي الحوار ده بالنص بعد ما «علي» استقال.

اصفر وجه «سما»، وأخذت ملامحها ترتعش كأنها على وشك الإغماء، أرادت أن تقوم لكنها شعرت بدوار كبير، لكنها تحاملت على نفسها، ونهضت بالفعل وقبل أن تكمل خطوتين سقطت مغشيًّا عليها.

*****

لم تعد أم «علي» تضغط عليه في شيء، كان مريضًا أغلب الوقت، لكنه سعيد طيلة الوقت أيضًا. وقد استسلمت أمه للتغيرات الرهيبة التي حدثت معه في الفترة الأخيرة، وأدركت أنه ليس شخصًا ضعيفًا وأنهم جميعًا كانوا يفهمونه بشكل خاطئ. نصحه أحد أصدقائه أن يغير الجو، لعل ذلك يساعده في تحسن صحته، وبالفعل قرر أن يسافر أحد «الكامبات» على البحر، وظل هناك مدة شهر، استطاع في خلال هذه المدة القصيرة أن ينتهي من مسودة الرواية التي كان قد بدأها منذ تركت له «سما» البيت، فكان يكتب على فترات متقطعة. كان سعيدًا أنه عاد أخيرًا إلى عالمه الذي يحبه والذي لم يجد نفسه في سواه، وقرر أنه سيعود إلى الصحافة أيضًا ولن يترك فرصة لتحقيق أحلامه بعد اليوم إلا ويكتنزها.

وفي أثناء هذه الخلوة أدرك حقيقة شعوره نحو «سكينة»، بعد أن ابتعد عنها فأخذ عقله يعمل بحرية، أدرك أنه يحترمها كنموذج للزوجة العظيمة، التي تقف بجوار زوجها لا في وجهه، التي تدعمه في أوقاته الصعبة وتمنحه كل ما تستطيع، كان هذا هو النموذج الذي تمناه والذي لم يجده في «سما» التي أحبها، ولا في أمه التي ولدته. ومع ذلك زاد حنيه إلى «سما» بشكل كبير. وأدرك أنه أيضًا يتحمل مسؤولية ما حدث، وأنه لم يطمئنها بالشكل الصحيح، حتى لو كان يبذل كل شيء، إن تدليل الطفل يفسده ولا يعني الحب أن نتنازل طيلة الوقت، فَهِمَ أننا بشر، وأنه يجب أن نتعامل بطريقة صحيحة مهما كان حبنا كبيرًا، أراد أن يتواصل مع «سما» مرة أخرى، ويخبرها أنه سينتظرها متى تعود، وكان

واثقًا أنه أصبح قادرًا على التعامل الصحيح معها، لن يسمح لها بالتحكم وسيمنحها الأمان، لن يتنازل عن أحلامه في حياته الخاصة ولن يقف عائقًا أمام أحلامها أيضًا.

جميلة هي الحياة عندما نفهما بالشكل الصحيح، تصبح كل الحلول سهلة وفي متناول أيدينا ولكننا لم نكن نبصرها.

عندما عاد إلى القاهرة، ذهب إلى «سكينة» واطمأن عليها، وأخبرته أنها قد وجدت عملًا جيدًا في إحدى المدارس كجليسة أطفال، وأنها يمكن أن تبحث عن سكن خاص بعد فترة، فقال لها:

- ما تستعجليش.. البيت بيتك.. وأنا مش قاعد في الشارع يعني.. وأديكِ يا ستي بتخلي بالك من الشقة.

وعندما عاد إلى البيت شعر ببعض التعب، ودخل ليرتاح بعدما جلس ساعة مع والدته، لكنه استيقظ قبل الفجر على سعال شديد، وألم لم يحتمله.

اتصلت أمه بـ «خالد»، فجاء فورًا وأخذه في سيارته التي اشتراها حديثًا بعدما تحسن وضعه المادي، وذهب به إلى المستشفى.

بعد ثلاثة أيام من الأشعات والفحوصات أخبرهم الأطباء أن «علي» مصاب بسرطان الرئة في مرحلته الأخيرة.

بعدما أدركت «سما» لماذا طلقها «علي» بهذه الطريقة المفاجئة، فهمت أخيرًا أنها قتلته في أكثر لحظة كان مستعدًا فيها للتضحية من أجلها. وفهمت أخيرًا أن مخاوفها أفسدت حياتها، وأفقدتها أكثر رجل نبيل أحبها في العالم، أفقدتها الرجل الوحيد الذي أحبه قلبها بصدق. وتحررت بعد فوات الأوان من أسر غضبها من والدها، وأدركت كم كانت قاسية حين حاسبت حبيبها وأمها بذنب لم يقترفاه، حاسبتهما على رقتهما وطيبتهما.

كانت تبكي كل ليلة حتى تسقط مغشيًا عليها من التعب، وبمجرد أن انتهت من المؤتمر المنعقد ورتبت بعض الأمور المتعلقة، وأنهت الأعمال المكلفة بها بأقصى سرعة، وقررت أن تعود إلى مصر فورًا، حتى لو استدعى الأمر أن تُفْصَل من العمل، كانت لا تريد إلا أن ترتمي في حضن حبيبها لتعتذر إليه عن كل ما مضى وتبدأ معه صفحة جديدة.

عندما علم «علي» بحقيقة مرضه، حمد اللّٰه، ونظر إلى أمه وإلى «خالد» وقال لهما:

- أنا مش زعلان.. أنا عملت اللي بحبه حتى لو متأخر.. وهموت في وسط اللي بيحبوني وبحبهم.. ابقوا بس قولوا لـ «سما» والنبي إني مش زعلان منها.. أصلي عارفها.. هي غلبانة وحساسة وحاطة بس وش الخشب ده عشان تداري بيه خيبتها.

وحاول أن يضحك لكن ألم صدره لم يسمح له.

وبعدما خرجت أمه من الغرفة أخرج ورقة من جيبه، وأعطاها لـ «خالد»، وقال له:

- الورقة دي أمانة عندك، لو أنا جرى لي حاجة، روح شقتي وأديها لسكينة، ده عقد بيع وشرا بالشقة بتاعتي لها. وأنت كمان خلي بالك من «سالي» وأقف جنبها. ما حدش ما بيغلطش يا صاحبي.. والقوي مش اللي يحاسب على الغلط.. القوي هو اللي يقدر يسامح عليه.

مر يومان تدهورت فيهما حالته الصحية للدرجة القصوى، حتى فقد وعيه، وأُدخل إلى غرفة العناية المركزة. وأمه واقفة بالخارج تبكي وتدعو له، وبجوارها «سكينة» تأخذها في حضنها وتبكي وتدعو معها. أما صديقه «خالد» فلم يتركه للحظة واحدة منذ أن جاء ليأخذه بالسيارة إلى المستشفى، ورغم ملامحه القاسية، إلا أنه لم يتوقف لحظة عن النحيب. وفي آخر الرواق كان يقف رجل وشاب يبكيان بحزن وصمت، أحدهما كان الحاج «عبده الغنيمي» والآخر هو «الصمطي».

في صباح اليوم التالي، وصلت طائرة «سما» إلى مطار القاهرة، وبينما كانت تتمّم أوراق خروجها من المطار، كانت روح «علي» تتمّم في نفس اللحظة جمع شتاتها قبل أن تغادر جسده إلى الأبد.

خرجت «سما» من المطار، قبل خطوة واحدة من خروج روح حبيبها من جسده.